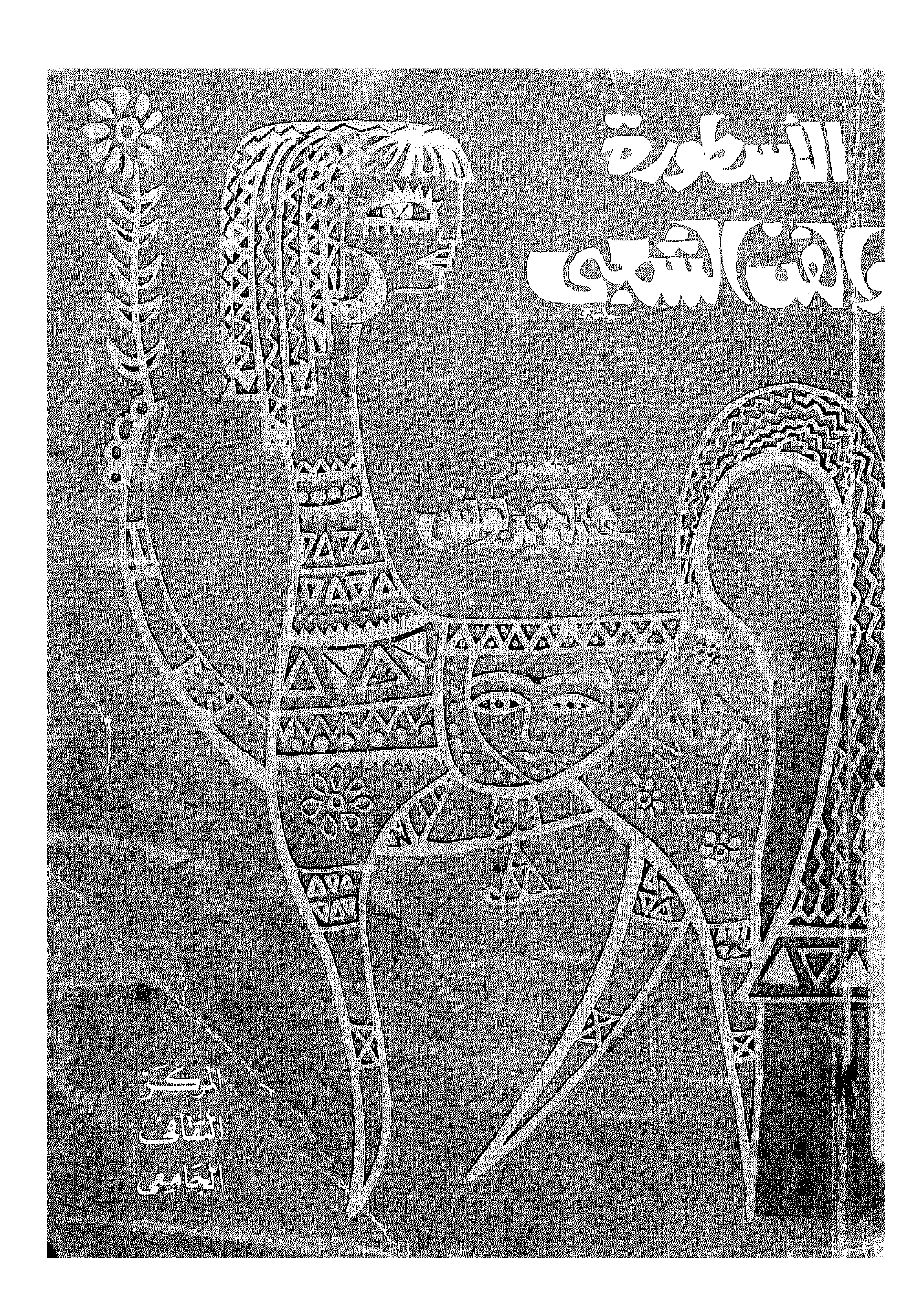

الأسطورة
والفن الشعبي
دكتور
عبد الحميد يونس
المركز
الثقافي
الجامعي

المركز
الثقافي
الجامعي

الاسطورة والفن الشعبي

الناشر : المركز الثقافى الجامعى
١٠ ش الرشيدى ـ قصر العينى ـ القاهرة
الطبعة الاولى ـ فبراير ١٩٨٠



بدأت العلوم الانسانية تعنى بالأسطورة والمأثور الشعبى منذ منتصف القرن الماضى عندما لاحظ الدارسون ان هذه العلوم لابد ان تأخذ بالمنهج الواقعى الحى فى مواجهة الانسان ، من حيث السلوك والعلاقات والحوافز والوظائف جميعا • وأدى هذا المنهج الى عدم الاعتماد على المنطق الصورى من ناحية ، وعلى التتبع للتاريخ الانسانى الذى يجنح الى التعميم والاستشهاد بالاثارة المادية والمدونة وحدها من ناحية اخرى •

وقوى الأخذ بمحاولة تتبع السلوك الانسانى العادى ·
وارتفعت مناهج علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا والنفس حتى استجابت الدراسة لمجالين · يقوم عليها التكامل فى الكشف عن الانسان فى تراثه وحوافز نشاطه ومراحل تطوره · وكان ان تخصص الدارسون فى الأسطورة والمأثور الشعبى ولا يبالغ العالم المتخصص الآن فى هذين العلمين الانسانيين اذا وصفهما ، أو وصف كلا منهما ، بأنه علم العلوم ، لان الباحث لا يفيد من نتائج العلوم الانسانية وحدها ، وانما يأخذ بتطبيق هذه المناهج على الاسطورة والمأثور الشعبى ايضا، يضاف الى ذلك حقيقتان بارزتان :

الاولى : ان التخصص فى كل علم من العلوم الانسانية لا يعنى الاستقلال بمنهجه فى النظر والتطبيق ، لان التصور الواقعى للأنسان يقتضى بالضرورة محاولة تصور متكامل للسولك الانسانى واذا كان المتخصصون فى العلوم التطبيقية الطبيعية يصدرون عن محاولة متكاملة لتصور الطبيعة الحية وغير الحية « فان علماء الانسان اكثر نزوعا الى هذا التصور المتكامل للكائن الانسانى المتطور الحى فى افراده وتجمعه ·

والثانية : ان ملاحظة الانسان فى اى مجال من المجالات لا يمكن ان يستغنى بحال من الأحوال عن سائرها ، وهى ليست الا ظواهر يرتبط بعضها ببعض ان لم تكن مرحلة متطورة لاحدى تلك الظواهر ٠

ومن هنا تحمس كثيرون من الدارسين للعلوم الانسانية للمتابعة والتعاون ، حتى تنتهى الأبحاث الى قدر من التكامل فى تصور الكائن الانسانى الحى ٠

واصبح من الكلام الدارج ان نقول ان الانسان كائن اجتماعى لانه مهما تفرد بذاته فهو ثمرة بنية اجتماعية ، ولكننا نضيف الى ذلك حقيقة ، تعد نتيجة لما نردده عن اجتماعية الانسان ، وهى ان مسار الحياة الانسانية عند الفرد وعند الجماعة لا توجد فيه خطوط فاصلة لما يسمى بالماضى أو الحاضر ، لأن القوام الانسانى محصلة مكابدة وتجربة وخبرة ومعرفة ومشاعر ٠ وما من فرد الا ويختزن فى وعيه ، بل وفى لا وعيه الكثير من الماضى ، وهو يصدر فى الحاضر عن ثمرة تلك الثقافة بمفهومها الحى المتطور أبدا ٠٠

وادت هذه الظاهرة الواضحة الى تصحيح أحكام كثيرة على شعور الانسان وفكره وتعبيره ونتج عن التصور الجديد مسايرة تكافئه فى مناهج العلوم الانسانية بصفة عامة وعلمى الفولكلور والميثولوجيا بصفة خاصة ·

ولما فرضت الحياة الأكاديمية على ان اتخصص فى الأدب الشعبى ، فان محاولة تصور هذا الفن اقتضتنى ان اتجاوز كثيرا من الأنظار التقليدية عن الأدب واللغة ، وان الزم نفسى ما استطعت ان آخذ بمنهج واقعى للآثار والنصوص الحية المؤثرة ·· واثمر هذا الجهد اتساع النظرة الى الوثيقة الادبية الواقعية ، بحيث تعنى بالحركة والايقاع وتشكيل المادة ، الى جانب الكلمة ، بل اتسع المجال فى التركيز على الوظيفة ، وذلك يوصل الابداع بالتذوق والحاضر بالماضى ، والفرد بالجماعة ·

وهأنذا اقدم الى القارىء العربى نظرة مجملة عن الأسطورة والأدب الشعبى ضبطا لدلالاتها وتوضيحا لمناهجها ومواداها الحية المؤثرة فى الفرد وفى الجماعة ·

وسنجد ان هذين المصطلحين يدلان على مجالين لهما مكانهما بين العلوم الانسانية ويدلان فى الوقت نفسه على الوثائق والمواد التى يقوم هذان المجالان بدراستها ٠

وكل ما الح عليه ان نحاول وضع المأثور الشعبى والأسطورة فى مكانهما من حيث حياتنا المتحضرة المعاصرة ، مع الاعتراف بأن الاسطورة والأدب الشعبى سيظل لهما تأثيرهما ، لا فى استلهام التراث فحسب ، ولكن فى صياغة الشخصية الفردية والجماعية أيضا ٠

د٠ عبد الحميد يونس

الفصل الأول

الفولكلور والميثولوجيا

ليس هناك موضوع يحتاج فى معالجته الى التدقيق وبذل الجهد ، فى تحديد المصطلح والمجال والعلاقة والسياق والوظيفة ، من « الفولكلور والميثولوجيا » · واذا كان مصطلح الفولكلور يعد من المصطلحات الحديثة نسبيا فى العلوم الانسانية والدراسات اللغوية والادبية ، فان مادته تتسم بما فى حياة الانسان من محافظة على العناصر الثقافية الموروثة والصالحة ، ومن تطور مستمر يقتضيه التغير الدائم فى البيئة المادية والاجتماعية لهذا الكائن الفذ ، بين سائر الكائنات التى تعيش على الارض · وهذه المادة الفولكلورية ، التى حرص الانسان على ان تكون مسايرة لحياته المتغيرة ابدا ، فيها من القديم الموغل فى القدم ما يستطيع الباحث ان يستكشفه فى يسر ، وفيها من العناصر ، التى طرأ عليها التعديل وربما ادى بها هذا التعديل الى اتخاذ اشكال جديدة وأزياء جديدة ، ما يحتاج فى استكشافه الى جهد وتأمل وقدرة على المواجهة والموازنة فى آن واحد ، وفيها اضافات محققة الى التراث الروحى والعملى ، املتها الظروف الطارئة التى غيرت قوام المجتمع الذى نجمت فيه وعلاقات وحداته وافراده بعضها ببعض · اما الميثولوجيا فهى عريقة من حيث المادة والعلم معا ، وقد جعلها ذلك وثيقة الاتصال بالعناصر الفولكلورية على مدى التاريخ الانسانى وفى جميع البيئات الثقافية للمجتمعات الانسانية · كما ان زوايا الرصد ، التى نظر منها علماء الميثولوجيا ، قد اعانت على شيء من الادراك

لمراحل الدراسة والتقويم لموضوع الفولكلور ومادته ، قبل ان يتفق المتخصصون على هذا المصطلح الاخير فى منتصف القرن التاسع عشر ٠

ولا بد لنـــا ان نلقى شـــيئا من الضـــوء على هذين المصطلحين : « الفولكلور » و « الميثولوجيا » ٠ والواقع انهما يتماثلان فى دلالتهمـــا على المـــادة والعلم فى وقت واحد ، فالفولكلور يدل فى اكثر المؤلفات والمجموعات على ما يصدر عن الشعب من ابداع ، وما يمارسة من شعائر ومراسيم ، وما يصدر عنه من عادات وتقاليد ، أو بعبارة أخرى يدل على المادة الشعبية التى اصبحت موضوعا لعلم قائم برأسه هو علم الفولكلور ، الذى كاد يصبح له مجال محدد ، ومنهج متفق عليه ، ومصـــطلحات على شىء من الدقة ، وهو مـــع استقلاله فرع مهم من فروع العلوم الانسانية ، يتبادل واياها النتـــائج والاحكـــام ، ويفيد منها كما تفيده فى مجال البحث والتمييز والتصنيف والعرض ٠

وهكذا يدل مصطلح الفولكلور على العلم من ناحية ، وعلى مادة العلم من ناحية اخرى ، وان رأى بعض الباحثين ان من الضرورى استخدام مصطلح آخر مشتق من الفولكلور، لكى يدل على العلم فحسب، وهذا المصطلح هو
(1) Folkloristics

---

١ – يورى ســـوكولوف : الفولكلور ، قضـــاياه وتاريخـــه ، ترجمـــة حلمى شعراوى وعبـــد الحميد حواس ، طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ ، ص١٧ ٠

والعالم المتخصص فى هذا الفرع من فروع الدراسات الانسانية هو Folkloristicist ووضع هذان المصطلحان على نسق المصطلحات المتفرعة عن الفلسفة من قديم مثل Ethics و Aesthetics للدلالة على الاخلاق والجماليات ، بيد ان المصطلح الخاص بعلم الفولكلور لم يلق الرواج أو القبول ، فانحصر فى بيئة ضيقة وفترة محددة من الزمان ، وغلب مصطلح الفولكلور للدلالة على العلم والمادة المدروسة فى آن واحد ·· ومصطلح الميثولوجيا يدل على معنيين متمزين وواضحين :

اولهما العلم الذى يبحث فى الاسطورة أو الاساطير ، وقد اصبح من المتفق عليه فى البيئات العلمية العربية ان نستخدم كلمة اسطورة كمقابل للمصطلح الغربى Myth هذه الدلالة على العلم ترجمة حرفية للكلمة ·

وثانيهما الدلالة على مجموعات الاساطير الكبرى والمتميزة فى التاريخ الانسانى أو بين الشعوب المختلفة ، كأن يقال الميثولوجيا البابلية والاشورية ·· والميثولوجيا المصرية القديمة··الميثولوجيا اليونانية والرومانية·· الميثولوجيا الافريقية ·· الخ · ويحتاج الدارس العربى الى انْ يتعرف دائما ، وهو يراجع التأليف والمصنفات غير العربية ، على

القرائن التى ترجع مدلولا على اخر ، الى جانب المدرسة أو والمنهج الذى يصدر عنه المؤلف أو الجامع فى عرضه ودراسته جميعا .

وهذه العلاقة الوثيقة بين الفولكلور والميثولوجيا ، من حيث المادة أو من حيث العلم ، قد املت على المتخصصين فى مختلف العلوم الانسانية ان يعتمدوا على هذين المجالين اعتمادا كبيرا . والذى يهمنا فى هذا البحث هو ان العالم الذى يريد ان يتخصص فى الفولكلور يجب عليه ان يكون من الدارسين النقاة للاساطير ومن الملمين بتاريخ علم الاساطير ومدارسه المختلفة ، وان يتنكب عن المبالغة فى الاجتهاد والتأويل ، وان يتذكر على الدوام ان الفولكلور قد اصبح الان علما قائما برأسه وانه يعتمد ، الى اقصى حد ممكن ، على الملاحظة الواقعية والعمل الميدانى ، وان الجزئى والمحلى فى ملاحظاته هو الاولى بالعناية من التجريد والمطلق فى الاحكام المعتمدة على المنطق الصورى فحسب .. لابد لدارس الفولكلور من ان يكون دارسا للميثولوجيا فى الوقت نفسه ، وان يكون اهتمامه بالاساطير ، فى موادها القديمة أو المتطورة او المستحدثة ، لا يقل عن اهتمامه بالعناصر الفولكلورية ، على اختلاف اشكالها ومضامينها ووظائفها .

والميثولوجيا ـ كما سبق ان ذكرنا ـ علم قديم موغل فى القدم أو لعل مادة هذا العلم ، بالمفهوم الحديث لمصطلح العلم هى المصدر الاول والاقدم لجميع المعارف والخبرات

الانسانية . وما من باحث فى تاريخ الفكر الانسانى أو الفن الانسانى الا سجل هذه الحقيقة ، وهى ان الاسطورة ، بقوامها المتكامل المستوعب للكلمة والحركة والاشارة وتشكيل المادة ، هى جماع التفكير والتعبير عن الانسان فى مراحله البدائية والقديمة . وليس من غرضنا ان نؤرخ لهذا العلم ، وحسبنا ان نشير الى المقومات الاساسية ، التى اتسم بها العلم بالاساطير فى العصور والبيئات الثقافية المشهورة . ومن الضرورى ان نثبت ملاحظة او تحفظا : فكلمة اسطورة، وهى محاولة لترجمة كلمة Mythos اليونانية ، قد استعملها غير المتخصصين للدلالة على كل شىء يناقض الواقع ، أو بتعبير اوضح « ما لا وجود له فى عالم الواقع » ويغلب على الظن ان هذا الاستعمال قد دفع اليه المجتهدون الذين حاولوا ترجمة المصطلحات الغربية ، كما تشيع على اقلام الادباء فى انجلترا وفرنسا خاصة . ومن المسلم به ان الادبين الانجليزى والفرنسى كانا يخضعان فى القرن الماضى لموجة رومانسية عاتية ، جعلت الادباء يجنحون الى الاستعارة من الاساطير القديمة ، وتحميل بعض العناصر الاسطورية ما لم تقصد اليه من الدلالات والرموز ، ولذلك رأينا كلمة Mythos كثيرا ما كانت تدل فى اللغتين الانجليزية والفرنسية فى القرن الماضى على ما يناقض الواقع . ومما عمق هذا الاستعمال فى استخدام الترجمة العربية « اسطورة » للدلالة على ما يناقض الواقع ، ان اساطير الاولين ، تدل على معتقدات المشركين قبل ظهور الديانات السماوية .

والراجح ان هذا المفهوم ، الذى جعل الاسطورة مناقضة للواقع ، جد قديم ، فقد اعترض بعض فلاسفة الاغريق على ما رواه الشاعر « هوميروس » فى الالياذة والاوديسا من خوارق الاعمال المنسوبة للآلهة والابطال ، واعتبروها تهاويل خيال ووهم لا علاقة له بعالم الواقع على الإطلاق . وأبى «اكزونوفون» ان يقتنع بخلود الالهة الذى قال به هوميروس وهزيود . واعترض هذا الفيلسوف بصفة خاصة على تشبيه الآلهة بالناس، واحتج بانه لو اتيح للخيل والانعام والوحوش القدرة على الرسم ، لصورت الالهة على مثالها ! .. والمعنى المستخلص من هذا الرأى ان الخيال الانسانى ، مهما كانت قدرته وطاقته ، لا يستطيع ان يخرج عن عالم الواقع ، وانه فى الوقت نفسه اعجز من ان ينفصل عن الذات الانسانية الى موضوعية خالصة .

ولقد ظلت الاساطير ، مع ذلك ، تستحوذ على اهتمام الصفوة من المفكرين فى جميع انحاء العالم ، الذى خضع فى تفكيره وتعبيره لمؤثرات هلينية . وشرع المعنيون بها يفتشون عما تنطوى عليه ، فى تصورهم ، من دلالات خفية ، ورأى بعضهم ان اسماء الالهة فى اساطير هوميروس انما تدل على الملكات الانسانية أو العناصر الطبيعية كما رأى فريق آخر من

المفكرين ان هذه الاساطير عبارة عن مجموعة من االرموز والمجازات لمعان وقوى ومثل ، ولم تعد الآلهة عنـد اولئك وهؤلاء سوى التشخيص لمبادىء اخلاقية ونواميس طبيعية ٠ وظل اتجاه آخر يحتكم الى العقل فى تفسير الاساطير ويذهب اصحابه الى ان الالهة كانت فى اصلها طائفة من الملوك بلغوا من القوة والتأثير شأنا عظيما جعل الناس يتجاوزون بهم عالم الواقع الى عالم الخوارق ، ثم يؤلهونهم ، ولهذا الاتجاه اهميته اذ اخرج الاساطير من عالم الوهم والخيال ومجرد الرمز شبه الفنى الى عالم الواقع ، ذلك لانه جعل للاساطير واقعا تاريخيا ، ولعل الاصح ان يقال : ان الاساطير قد اصبح لها ، بفضل هذا الاتجاه ، واقع فيما قبل التاريخ ٠ واخذت الاساطير ، منذ ذاك ، تمثل الذاكرة الانسانية عندما تستدعى مرحلة بلغ من بعدها فى الزمان ان اكتنفها الغموض من كل جانب ٠ واعان ذلك الخيال على تصوير الملوك تصويرا خارقا فى عصور سحيقة غلبت عليها البداوة ٠ وينسب هذا الرأى يوهيميروس Euhemerus الذى مات فى اوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، اذ صنف قصة خيالية فى صورة رحلة فلسفية ، تعرف باسم التاريخ المقدس Hyera Anagraphe وقد حاول فيها ان يثبت ان كل الاساطير القديمة عبارة عن احداث تاريخية حقيقة ، واوضح ان الالهة لم تكن فى الاصل سوى كائنات انسانية اثبتت امتيازها ، فما كان من الناس الا ان عبدوها بعد موتها ٠ واشتهر هذا المذهب باسم اليوهيميرية Euhemerism ويستطيع الباحث ان يقرر ان دراسة الاسطورة بالمنهج العلمى انما بدأت على يد كارل أوتفريد مولر

Karl Otfrid Muller في كتابه « مقدمة في دراسة الاسطورة » الذى صدر عام ١٨٢٥ ، بيد ان المباحث الجادة عن الاسطورة لم تنل حظها من الذيوع الا بفضل ماكس مولر Max Muller في النصف الثانى من القرن التاسع عشر وله مصنفات في علم الاساطير المقارن • وهو يذهب الى ان الاسطورة انما نشأت نتيجة قصور في اللغة ، مما يؤدى الى ان يكون للشىء الواحد اسماء متعددة ، كما ان الاسم الواحد كثيرا ما يطلق على اشياء مختلفة •• وكان من نتيجة هذا التصور لاله واحد ، وجنحوا كذلك الى تصور الاله الواحد على هيئات متعددة • ثم ان استعمال المقاطع الاخيرة الدالة على الجنس ، تذكيرا وتأنيثا ، يؤكد تشخيص الالهة • ويرى مولر ان الاريين انشأوا مجامع الهتهم حول الشمس والقمر والسماء • وانتقد اندرولانج Andrew Lang هذا المنهج الاسطورى ، الذى يتركز حول الشمس في تفسير الاساطير ، واكد ان الاساطير لم تنشأ عن قصور في اللغة ، ولكنها نشأت عن تشخيص العناصر الكونية ، وهو يرى ان النزوع الى التشخيص مرحلة من مراحل الفكر ، تتسم بالتجسيم واسباغ الحياة على المحسوبات والكائنات والظواهر • واستند اندرولانج في نقده لنظرية مولر الى المواد التى يعالجها « علم الانسان » وكان حديث الظهور وقتذاك ، وكان جل اعتمادة على رأى تيلور E.B. Tylor الذى يتلخص في أن الاعتقاد بوجود الروح في كل شىء كان بمثابة المرحلة الاولى من مراحل الدين • وفي اوائل القرن العشرين احيا المفكرون الالمان المذهب الذى يفسر الاساطير بأنها اصداء الظواهر

السماوية بصفة عامة ، وحركات الشمس والقمر بصفة خاصة • اما المدرسة الانثروبولوجية الانجليزية وعلى رأسها السير جيمس فريزر Sir James Frazer وجين هاريسون فقد حاولت ان تفسر اساطير الشرق الادنى وبلاد اليونان بمصطلحات الطقوس والسحر • ويرى فريزر ان دورة النماء والذبول هى التى ابدعت صورة الاله المتحضر واسطورته • وهذا هو تفسير للاساطير التى تدور حول ادونيس وآتيس واوزيريس • ويذهب بعض المتخصصين المحدثين فى الاساطير الى ان الطقوس اسبق من الاسطورة فى الظهور ، وتعد الاسطورة عند اصحاب هذا المذهب ، تفسيرا تمثيليا للطقوس ويكاد العلماء يجمعون الان على وجود رابطة وثيقة بين الاساطير والطقوس • واثبتت الدراسات العلمية لحياة الجماعة البدائية ان الاسطوره عند الانسان البدائى انما تعنى حكاية واقعية ، لها مكانها الممتاز في حياته لسببين : اولهما : قداسة الاسطورة عند الانسان البدائى • وثانيهما : ان لها هدفا عظيما فى تصوره (٢) •

ويقول برونسلاف مالينوفسكى Bronislaw Malinowski ان الاسطورة درست وهي حيه فعالة •• فسوف يتضح انها ليست تفسيرا تمليه الفائدة العلمية ، وانماهى احياء قصص لواقع فطرى ، يروى استجابة لنزعات دينية عميقة وميول اخلاقية وارتباطات اجتماعية ، بل لتحقيق حاجات عملية ،

---

٢ ــ مجلة الهلال ــ العدد السابع ، يوليو سنة ١٩٦٨ ، موسوعة الآدب والفنون الشعبية

فالاسطورة تقوم من الثقافة البدائية بوظيفة لا غناء عنها ، فهى تعبر عن العقيدة وتذكيها وتقننها ، وتصون الاخلاق وتدعمها ، وتبرهن على كفاءة الطقوس ، وتنظم قواعد عملية لهداية الانسان ، والاسطورة بهذا المعنى عنصر حيوى فى الحضارة الانسانية · وهى ليست سمرا يقوم بتزجية الفراغ فحسب ، ولكنها قوة فعالة تستلزم جهدا مضنيا ·· انها ليست تفسيرا ذهنيا ولا تصويرا فنيا ، ولكنها ميثاق عملى للعقيدة البدائية والحكمة الاخلاقية ·· وهـذه الحكـايات ، عند المعتقدين فيها ، تقرير لواقع فطرى ، لا يزال يتحكم فى حياة الناس واقدارهم واعمالهم فى عصرنا الحاضر ، ومعرفتها تمد الانسـان بالحافز على النهوض بالاعبـاء التى تمليها الطقوس والفضائل ، كما تزوده بالارشادات التى توضح له طريقة ادائها (٣) ·

ومن العسير ان نضع تعريفا للاسطورة يجمع عليه العلماء المتخصصون ، ذلك لان الاسطورة واقع ثقافى ممعن فى التعقيد ، تختلف حوله وجهـات النظر · وحسـبنا ان نورد هذا الوصف الذى يتسم بالشمول ، وهو ان الاسطورة تروى تاريخا مقدسا ، وتسرد حدثا وقع فى عصور ممعنة فى القدم ، عصور

---

٣ ـ Bronislaw Malinowski, Myth in Primitive Psychology London 1926 P. 21.

خـرافية تسـتوعب بداية الخليقة (٤) · او بعبارة اخرى الاسطورة تحكى بوساطة اعمال كائنات خارقة ، كيف برزت الى الوجود حقيقة واقعة ·· قد تكون كل الحقيقة او كل الواقع مثل الكون أو العالم ·· وقد تكون جانبا من الحقيقة مثل جزيرة من الجزر أو فصيلة من النبات ، أو ضرب من السلوك الانسانى ، أو منظمة اجتماعية ·· والاسطورة بهذا المعنى قصة « وجود ما » ، فهى تروى كيف نشأ هذا الشىء أو ذاك · وهى ترتبـط بالواقـع فى اولياته ، وابطالها كائنات خارقه ويعرفون بما حققوا فى عصور التكوين ·

ولم يعد من الصعب تمييز الاسطورة عن غيرها ، ذلك لان الاولى تتركز حول تصور الواقع ، وان كان تصورا خارقا، وتقترن دائما بالطقوس التى تمثلهـا · واذا اردنا ان نحدد مجال الاسطورة ، فاننا نشير الى انها حكاية اله او شبه اله او كائن خارق ، تفسر بمنطق الانسان البدائى ظواهر الحياة والطبيعة والكون والنظام الاجتماعى واوليات المعرفة ، وهى تنزع فى تفسيرها الى التشخيص والتمثيل ، والتجسيم ، وتنأى بجانبها عن التعليل والتحليل ، وتستوعب الكلمة والحركة

---

٤ _ An introduction to Mythology, Lewis Spence, London 1931 PP. 158.

والاشارة والايقاع ، وقد تستوعب تشكيل المادة ٠ وهى عند الانسان البدائى عقيدة لها طقوسها ، فاذا ما تعرض المجتمع الذى تتفاعل معه الاسطورة ، لعوامل التغير تطورت الاسطورة بتطوره ٠ وقد تتبدد تحت وطأة عناصر ثقافية اقوى ، فتنفرط عقدتها ، وتنحدر الى سفح الكيان الاجتماعى ، أو ترسب فى اللاشعور وتظل على الحالين عقيدة او ضربا من ضروب السحر ، او ممارسة غير معقولة او شعيرة اجتماعية ٠

وكثيرا ما تتحول الى محاور رئيسية ، تعاد صياغتها فى حكايات شعبية ٠ والاسطورة تعد مادة للعلم المتخصص، فى دراستها وهو علم الاساطير أو « الميثولوجيا » ٠ وهذا العلم انما يعنى بها عند بعض المتخصصين ، وهى حية فعالة، تقوم على العقيدة والشعيرة والشكل التمثيلى ، فاذا تحولت الى عقيدة ثانوية ، أو ارتبطت بالشعائر الاجتماعية ، أو اصبحت حكاية شعبية ، فانها تخرج من اطار علم الاساطير وتصبح مادة رئيسية من مواد علم الفولكلور أو المأثورات الشعبية ٠

وليس من شك فى أن دراسة العقائد والشعائر القديمة والبدائية وبقاياها واصدائها ، كما تبدو فى ممارسات الاحاد العاديين ، اسبق من الفترة (١٨٤٦) التى ظهر فيها الى الوجود مصطلح فولكلور Folklore ، على يد العالم الانجليزى وليم جون تومز William John Toms ، ذلك لان ظهور القوميات من ناحية ، وانتشار مبادىء

الديمقراطية الليبرالية من ناحية اخرى ، قد ضاعف الاهتمام بما يصدر عن العامة أو جماهير الشعوب من تعبير وسلوك ٠
واذا كانت الوظيفة تخلق العضو ، كما يقول البيولوجيون ، فان ظهور هذا المصطلح وانتشاره بين الاوساط العلمية أولا ، وبين سائر الكتاب والادباء ثانيا ، يؤكد قوة الحاجة الى مصطلح جديد ، يكافىء المفهوم الجديد للتعابير والممارسات الشعبية ، فظهر مصطلح الفولكلور ليحل محل مصطلح آخر ، كان قد شاع استعماله بين المؤرخين خاصة ، وهو « العاديات الشعبية أو الدارجة » Popluar Intiquities ٠
ومن الواضح ان علماء الآثار كانوا بفضل التقدم فى الدراسات الانسانية على اختلاف فروعها ، قد أحسوا بأن النقوش ، والكتابات والادوات لا تحكى تفاصيل الحياة الانسانية فى الماضى البعيد أو القريب ، ولا بد من التفتيش عن وثائق أخرى ، تلقى الأضواء على تفاصيل العناصر الثقافية والحضارة لهذا المجتمع أو ذاك ، فى مرحلة محددة من تاريخة ، وأهتدوا آخر الأمر الى ان التعابير والممارسات الشعبية تحمل فى اطوائها من بقايا العصور الماضية ورواسبها فى تصورهم ، ما يميط اللثام عن الغامض أو الناقص أو المجمل فى الاثار المادية القديمة ، ولذلك استخدموا مصطلح « العاديات الشعبية أو الدارجة » ، ولكنهم فطنوا الى ان هذا المصطلح لا يفى بالغرض المقصود ٠ ولما نحت العالم الاثرى الانجليزى مصطلحه « الفولكلور » وجد استجابة مباشرة لاستخدامه ٠ والحق ان بعض العلماء فى الدول الاوروبية قد ترددوا فترة طويلة من الزمن فى استعمال

المصطلح الجديد ، واثروا عليه مصطلحات اخرى من لغاتهم كما حدث فى المانيا وفرنسا وايطاليا وغيرها ٠

وظل العلماء المتخصصون فى التعابير الشعبية يتشبثون بأن الفولكلور « علم تاريخى » ، مهمته استكمال الصورة الثقافية والحضارية لماضى شعب من الشعوب ، واسسوا على هذا النظر مجال الفولكلور : أولا على أنه علم من العلوم التاريخية بخاصة ، لانه يلقى الضوء على ماضى الانسان ، وثانيا لانه يعمل على تحقيق هذا الهدف ، لا بالتأمل النظرى واستدلال المنطق الصورى ، ولكن بالاعتماد على الملاحظة الواقعية والاستقراء العلمى ٠ واصبحت مهمة الفولكلور ، عند هؤلاء العلماء ، هى استكمال تصور القوام الروحى للانسان ، لا بالاعتماد على المشهور من اثار الشعراء والادباء والفنانين والمفكرين ، بل بما تمثله اصوات الجماهير، التى تتسم بالعفوية والارتجال وعدم المبالغة فى الدقة والوضوح والصقل ، وظل مصطلح الفولكلور ، منذ منتصف القرن الماضى يدل على معنيين كما أوضحنا من قبل ـ هما :

١ ـ جماع الروايات غير المدونة لجماهير الشعوب ، كما تبدو فى الابداع الدارج والعادات والتقاليد والمعتقدات والسحر والشعائر ٠

٢ ـ العلم الذى يعمل على دراسة هذه المواد الشعبية، باعتبارها وثائق حضارية وثقافية اصيلة ، لا تقل فى اهميتها

ودلالاتها عن الكتابات والنقوش وسائر الاثار والعاديات القديمة (٥) ٠

وليس معنى ذلك ان المهمة التاريخية لعلم الفولكلور تنأى بالمتخصصين فيه عن النقوش والمدونات ، ولكن المعنى انه يستهدف الكشف عن سلوك الاحاد العاديين ، وما ينطوى عليه من دلالات على الماضى البعيد أو القريب ، ومن أجل هذا اعتمد المتخصصون فى الفولكلور ، فى تلك المرحلة من تاريخ هذا العلم على الوثائق التى لها قيمة تاريخية الى حد ما ، ولم يفتهم ان يفتشوا فى الحوليات ودواوين الشعراء والقوانين ٠٠ الخ ٠ لينتخبوا منها ما يعكس مناهج تفكير الجماهير وتعبيرهم وسلوكهم ، التى تقابل أساليب الادباء والفنانين والعلماء فى التفكير والتعبير والسلوك ايضا ٠ بيد ان جل اعتماد الفولكلوريين فى الواقع ينصب على ما جمعه المتخصصون والمشغوفون بالمواد الشعبية ، فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ٠ وعلم الفولكلور يفيد فى تفسير وثائقه ومواده وتقييمها من منهج الدراسة المقارنة (٦) ٠

---

٥ ـ Standard Dictionary of Folklore..., Funk & Wagnalls New York 1949.

انظر التعريفات بمادة « فولكلور » ص٣٩٨ وما بعدها ٠

٦ ـ المصدر السابق ، الموضع نفسه ٠

ولقد واجه الدارسون ، منذ اللحظة الاولى ، ظاهرة لها تأثيرها على الدراسة وهى وضوح التفريق بين روايات أدبية وفنية ، اصطلح المتعلمون على وصفها بالرفيعة أو المعتبرة من ناحية ، وبين روايات شعبية أو دارجة ، عفوية أو شفاهية فى معظم الاحيان ، من ناحية اخرى • وهذه الظاهرة تبدو واضحة فى المجتمعات التى حققت قدرا من الحضارة • اما المجتمعات التى لا تزال تعيش فى مرحلة ثقافية متخلفة ، أو لا تزال فى طور البداوة ، فان ظاهرة وجود مستويين للثقافة ، ينعكسان على مناهج التفكير وأساليب التعبير وضروب السلوك ، لا تكاد تظهر • ومن الشواهد على ذلك بعض المجتمعات المنعزلة على تخوم الحضارة فى امريكا ، والاقوام الذين لا يزالون يعتمدون فى معاشهم على التجوال والتنقل مثل الاعراب الضاربين فى الصحراء ، والجماعات التى تعرف بأسم الغجر • كما ان مراحل البداوة التى سبقت الحضارات لم تعرف التدوين ، ومن الروايات والتعابير العفوية أو المحفوظة فى صدور الناس الى التدوين• ومؤرخو الادب العربى يشيرون الى عصر الرواية الذى بلغ أوجه فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) على أيدى اعلام ، اشتهروا بالحفظ والرواية والتدوين ، من امثال ابن عبيدة والاصمعى وحماد واضرابهم ومن العسير على الباحث أن يقول ان للجماعات البدائية البدوية «فولكلور» أو ان ما صدر عنها فى تلك المراحل الثقافية من وثائق ومواد من اختصاص عالم الفولكلور اذ الواقع انها مهمة العلماء المتخصصين فى الاثنولوجيا • ومع ذلك فان العلاقة حميمة جدا بين الفولكلور

والاثنولوجيا ، وهما يتبـادلان المواد والاحكام ، ويسـتعير احدهما من الاخر بعض المصطلحات والظواهر ٠

ولما كانت الاساطير قد امدت الدراسات الانسانية على اختلاف فروعها بالكثير من الظواهر والعناصر والمواد ، فان الفولكلور يعد ، عند بعض العلماء متشـعبا عن الميثولوجيا ومكملا لها ، ويعد عند غيرهم متشـعبا عـن الاتنولوجيـا أو مكملا لها ٠ والفولكلور على الحالين قد اصبح فرعا من العلوم الانسانية ، يرتبط بعلم اللغة العام وبالدراسات الادبية ارتباطه بعلم الانسان أو الانثروبولوجيا وعلم النفس ٠ وهذه العلوم تتكامل فيما بينها ، وتخضع الآن للمنهج العلمى القائم على المواجهـة الواقعيـة والملاحظة المباشرة ، بل والتجربة المعملية ايضا ٠ ولكن التقدم الذى احرزته بخاصـة علـوم الآثار وما قبل التاريخ والسلالات والانتروبولوجيا الثقافية قد اعان على استقلال الفولكلور وعلو شأنه ٠ ومن الحقائق المستقرة فى كثير من الاوساط العلمية استقرار البديهات ، وان جميع الحضارات قد نشأت ، كمعلم من معالم التحويل ، من الهمجية أو البدائية أى البداوة ، فيما يعرف بمرحلة ما قبل التاريخ ، وان الوثائق والاثار التى استطاع العلماء ان يكتشفوها ، وان يردوها الى هذه المرحلة ، تنطوى فى معظم الاحيان على معتقدات وعادات ظلت حية ، على الرغم من بعد الزمن بها وتقادم العهد عليها ، مؤثرة فى سـلوك الجماهير والاحـاد العـاديين فى العصر الحديث ٠٠ وهذه المعتقدات والممارسـات والتعابير من وثائق الفولكلوريين ، ما زالت

حية فعالة فى حيــاة الافراد والجمــاهير · واذا كان بعض اصحاب الجباة العريضــة قد ارتفعت اصواتهم بالاعتراض على الاهتمــام بالتراث الشــعبى بصــفة عامــة ، بالتعابير والمعاريف الشعبية بصفة خاصة ، فان ذلك لا يمكن ان يقلل مــن اهمية المــادة الفولكلورية ، وعلم الفولكلور ، ذلك لان واقع الدراسة قد اثبت ان الوثائق التاريخية وروائع الاداب والفنون المعتبرة لا يمكن ان تفهم على وجهها الصــحيح أو الكامل الا بالاعتمــاد على الفولكلور · وهــذا مــا فطن اليه المتخصصون فى الاداب الكلاســية فان الكثير من العادات والطقوس التى أوردها الشــاعر اليونــانى القديم هوميروس فى الالياذة أو الاوديســا ، أو تلك التى وصــفها الشــاعر الرومانى فرجيل فى الانيــادة ، لا تزال موجودة ومؤثرة فى حياة الافراد والجماعات الى الآن (٧) · ومن المفيد فى هذا المقام ان يقدم الباحث شاهدا من الادب العربى القديم ايضا لتأكيد هذه الظاهرة ، وهذا الشــاهد مســتخلص من معلقة امرىء القيس المشهورة ، بل ان الشطر الاول من البيت الاول فى هذه المعلقة وهو « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » ، فان استخدام الشــاعر لصيغة المثنى انما يدل على عادة لا تزال مرعية فى البادية والريف وعندنا ، وهى ان الفرد عندما يهم يعمل له خطورته ومكانته فى خياته وحياة عشيرته ، يصطحب اثنين من رفاقه على سمته وهيئته ، وكان ذلك فى الجاهلية

---

٧ ــ المصدر السابق ، الموضوع نفسه ·

تضليع للارواح الشريرة ، حتى لا تصـيب هذا الفرد بأذى ٠ ولقد ظل ايثار صيغة المثنى متداولا بين الشعراء الى أوائل النهضـة الادبية فى العصر الحديث ، واصـبح بذلك أقرب ما يكون الى تقليد مـن التقاليد الفنية المرعية من الشـعراء المبرزين مثل أحمد شوقى الذى يقول « خليلى اهبطا الوادى وميلا ٠٠٠ الخ » ، وهو يصـور تأهبه لزيارة الاثار المصرية القديمـة (٨) ، ومـن أجـل ذلك ارتبط علـم الفولكلور ، لا بالدراسات اللغوية فحسب ، ولكن بنقد النصوص الادبية ايضـا وان كانت علاقته بهذه المباحث أقل من علاقته بالعلوم الانسانية الاخرى ٠

وان العـروة الوثيقـة بيـن الفولكلور والميثولوجيا قد جعلت الاول يعد ، فى نظـر بعض المتحمسين للفولكلوريات ، ممهدا للعلوم الطبيعيـة الحديثة ، التطبيقيـة والبحتة على السواء ٠ ويصدق هذا بخاصة على السـحر الذى عـده السـير جيمس فريزر الصـورة السابقة لتلك العلوم ٠ ولا يزال هناك من يشك فى هذه الاصرة المدعاة للفلكلور ٠ أما الطب الشعبى فليس هنـاك من يشـك فى انه الممهد الطبيعى للطب الحديث ، ذلك لأن الكثير مـن

---

٨ ـ محاضرة فى الآدب الشعبى للدكتور عبد الحميد يونس ، مطبعة جامعة القاهرة سنة ١٩٦٠ ، ص٨ ٠

التشــخيص الشـعبى للعلل والامــراض ، والوصفات الشـعبية لعلاجها ، انما هو ثمرة ملاحظة دقيقة وتجربة صـحيحة ، مهما كانت فطرية أو اولية أو ساذجة ·

وأهم منطقة يلتقى فيهـا الفولكلور بالميثولوجيـا هى السير الشعبية لانها ، وهى باب من ابواب الادب الشعبى ، تستمد قرائن متعددة من الملاحظات الواقعية التى يسـجلها علم النفس بصفة عامة ، والعلاجى منه بصفة خاصة · وهذا ينطبق على قراءة المسـتقبل وتفسـير الاحلام والحاسـة السـادسة والتوقع غير المعقول والجلاء البصرى والتليباثى ··· الخ ·

واذا كنا قد اشرنا الى وجود ضربين مـن الروايـة ، أحدهما شعبى والاخر رسمى ، فان ذلك لا يعنى انهما يسيران جنبا الى جنب ، وكأنهمـا الخطـان المتوازيـان ، اللذان لا يلتقيان مهما امتدا ، فالواقع ان العكس هـو الصـحيح ، فانهمـا يتبادلان التأثير والتأثر · ما اكثر المـواد الفولكلورية التى ينقلهـا أو يرددها أو يسـتلهمها الشـعراء والكتـاب المعروفون ، وما اكثر المعـازف العلمية والشـواهد الادبية التى تجد لها مكانا فى الذاكرة الشعبية ، والتى يرددها ، أو يسـتشـهد بها ، أو يفيد منها ، الاحاد العاديون من جماهير الشـعب · وادت هذه الظاهرة الى جدل بين العلماء فهناك اتجاه تزعمه هانز نومان Hans Nauman يذهب الى ان

الشعب لا يبدع شيئا جديدا وانما يعيد صياغة شيء موجود ابدعه أفراد متميزون . وعلى هذا فان الازياء الشعبية والرقصات الشعبية عند الفلاحين الاوروبيين انما هى ازياء قديمة كانت شائعة بين النبلاء فى مرحلة سابقة ، ورقصات كان يمارسها الفرسان والسيدات من علية القوم (٩) . اما الاتجاه الذى تزعمه هردر J.G. Herder والاخوان جريم Grimm فقد ذهب الى ان الشعب قادر على الابداع وانه هو الذى وضع الاسس التى جعلت الشعراء والادباء والفنانين يبدعون الاداب والفنون الرفيعة ، التى تتسم بالطابع الذاتى لمبدعيها .

والحق ان الاخذ والعطاء بين الجماعات البدوية والبيئات الحضارية موصول على مدى التاريخ ، تؤكده الملاحظات والنصوص ، كما ان تبادل التأثر والتأثير بين مختلف الطبقات فى المجتمع الواحد ، لم يعد موضوع جدل أو انكار ، ذلك لانه قد أصبح من الواضح ان المواد الفولكلورية تهبط من قمة الهرم الاجتماعى الى سفحه ، كما تصعد من السفح الى القمة ، يضاف الى هذا كله ان الانسان مهما كانت طبقته ، يختزن فى ذاكرته ، ويحتفظ فى اطواء نفسه بالكثير من العناصر الفولكلورية ، التى تؤثر فى سلوكه

---

٩ _ Standard Dictionary of Folklore, op. Cit

انظر التعريفات الخاصة بمادة فولكلور ص ٣٩٨ وما بعدها .

العادى فى حياته اليومية ، والتى تظهر بشكل أقوى فى فترات التوتر النفسى أو العصبى • ولسنا فى حاجة الآن الى الوقوف عندما شاع بين البيولوجيين من القول بنظرية الاسترجاع ، التى كانت تعنى أن الكائنات الحية تحتفظ فى جسمها وسلوكها بما يدل على مرحلة أو أكثر من مراحل التطور السابقة ، وكانوا يستدلون على هذا القول بما يوجد فى الاجسام من ندبة اثرية لا وظيفة لها ، ويذهبون الى انها فقدت وظيفتها ، وظلت مع ذلك دليلا على مرحلة كانت فيها تؤدى ما وجدت من أجله • وانسحب هذا النظر على الدراسات الانسانية بصفة عامة ، وعلى الفولكلور ، والميثولوجيا بصفة خاصة • ومهما يكن من أسر المبالغة فى هذا القول وما اليه فان الظواهر لا تزال ترجح اختيار الكائن الحى لتراثه ، وبقاء بعض العناصر موجودا وان فقد وظيفته ، وفى هذه الحالة يوشك ان ينقرض ، الا اذا أصاب من التعديل والتحوير ما يجعله قادرا على اداء وظيفة جديدة • ومن هنا التحم الفولكلور بالميثولوجيا فى مرحلة سابقة من مراحل العلم ، وظهرت المدرسة الميثولوجية ، التى عنيت بالمواد الفولكلورية ، وميزت الظواهر الاسطورية فى تلك المواد ، وشرحت الوظائف السابقة ، وكانت تقوم بها ، وهى حلقة رئيسية أو ثانوية من حلقات عقيدة اسطورية ، تحققها شعائر وطقوس ، قد تحولت عن وظائفها السابقة الى وظائف جديدة، فأنفرطت عقدتها وانتشرت ، واتخذت صور العقائد الثانوية

والممارســـات الســحرية والمراســيم الاجتماعية والحكايات الشعبية وما الى هذا بسبيل ٠

والفولكلور فى هذا الجيل قد اتسع مجاله، ولم يعد محصــورا فى البقايا والرواســب ؛ وتجـاوز الهدف التاريخى ، الذى يبحث عما يكمل صورة الماضى البعيد أو القريب ، وأصبح يستهدف دراسة الانسان ، من حيث هو انسان فى بيئته وعصره ، مفيدا من العلوم الانسانية الاخرى ، ومزودا اياها بالملاحظات والوثائق والاحكام ٠ واتســعت دائرة علم الفولكلور ، فشملت الجماعات الثـابتة ، كالامة والطبقة وأصحاب مهنة بعينها ، والجماعات المؤقتة ، كالانضواء فى هذه المرحلة أو تلك من مراحل التعليم ٠٠ واصبحت هناك فروع متنوعة لعلم الفولكلور ، تختلف ، باختلاف زاوية الرصد ، وبأختلاف طبيعة الجماعة ٠٠ هناك ــ على سـبيل المثال ــ الفولكلور الخاص بالمهن ٠٠ الفولكلور الخاص بالجامعات التى لها تقاليد ومراسيم وتعابير ورموز ٠٠٠ الخ ٠

والانســان المعـاصر ، مهما يكن حظه مــن العلم ، يعد موضــوعا من موضــوعات هذا المجال المتسـع مــن مجالات المعرفة الانســـانية ، بيد ان العلاقــة الحميمة بين الفولكلور

والميتولوجيا لا تزال على شيء مـن القوة ، لان العلم الاخير يرتبط بالعقائد والشـعائر والممارسـات القديمة الموغلـة فى القدم ، والتى لا تزال نظائرهـا موجـودة ، تقوم بوظائفهـا الاسطورية عند بعض الشعوب المعاصرة ، وفى بعض البيئات الثقافية فى عصرنا الحاضر • ومع اننا قد استطعنا ، بفضل العلم والتكنولوجيا ، ان نخرج من جاذبية الارض ، وان نهبط على القمر ، وان نعمل للوصول الى المريخ والزهرة وغيرهما من الكواكب فى مجموعتنا الشمسية ، فان المعتقدات القديمة، التى صاغها الانسـان حول الشمس والقمر وسـائر الكواكب وحول السـماء والارض وبقية الظواهر الكونيـة ، وحول حيـاته وحيـاة الكائنات المفيدة والضـارة ، ولا تزال تعمر النفوس ، وتؤثر في العقول وتحكم ضروب السلوك ، كما ان الكثير من التعابير والافكار والمعارف لا يزال تكتنفه مؤثرات، تدخل فى نطـاق علم الفولكلور الآن ، وقد ترد الى ظواهر ميثولوجيـة فى عصر قديـم ، أو حتى فى عصـور مـا قبل التاريخ •

الفصل الثاني

الشمس والقمر والزهرة

يذكر المؤرخون لعلم الاساطير المراحل المتعددة التي مر بها هذا العلم على حداثته ، ويسـجلون انشـعاب المدرسـة اللغوية الى شعبتين كبيرتين هما : الشعبة التي جعلت الشمس المحور الاكبر للاساطير ، والشعبة التي جعلت الظواهر الجوية هي التي حفزت الانسان البدائي الى محاولة تفسيرها بمنطقة المعتمد على التجسـيم والتشـخيص والتمثيل . ولقد تزعم الشـعبة الاولى ماكس مولر Max Muller الذى اسـس المدرسـة اللغوية ويرى الآخذون بهذا الاتجـاه ان « آلهة الشمس وجدت في كل بيئة . وانها محور الاسطورة والتراث الشعبي » . ولعل اشهر القائلين بهذا الرأى السير جورج وليام كوكس Sir George William Cox (١٨٢٧ـ ١٩٠٢) وهو مؤلف كتاب «المدخل الى الميثولوجيا والفولكلور (١٨٨١) ، ولقد الح على عالمية الاسطورة الشمسية وأعتمد في اثبات رأيه على دراسة علمية لعدد كبير من الاسـاطير والحكايات الشـعبية . ولم يكن هذا العالم من المتشـبثين بالتفسير اللغوى للاساطير تشبثا كاملا ، وكان على وعى كامل بالمزالق التي يتعرض لهـا الاعتمـاد على الاسـاطير التيوتونية أو اليونانية القديمة أو اللاتينية أو الاسكندنافية ، وهي الاساطير التي تتردد في المصادر الارية فحسب . ومع انه سلم بوجود طائفة من الاساطير تفسر ظواهر طبيعية غير الشمس ، فانه اقر بوجود اساطير اخرى ترتبط بالنجوم والسدم .

اما الشعبة الثانية التى التفتت الى الظواهر الجوية ، فقد سجلت وجود ظاهرتى البرق والرعد فى كل الاساطير . وردت جميع الشخوص والكائنات والاحداث التى فى فى الاساطير الى هاتين الظاهرتين ، فهى ترى - مثلا - ان التنين وغيره من الكائنات الوحشية الخارقة تقوم بحراسة الكنوز والعذارى الفاتنات فى معقل سماوى حصين ، الى ان يصل البطل الموعود ، الذى يصرع التنين أو غيره من الوحوش ، وينقذ العذراء . وتذهب فى تفسير هذه الاحداث الى ان السحب الكثيفة السوداء ، التى تنذر بالبرق والرعد ، تحجب النور الى ان يصل البطل ويقوم بتبديدها (١٠) . وأيا كان الاتجاه الذى اتخذه القائلون بالتفسير اللغوى للاساطير، فان الانتباه الى التحليل اللفظى قد افاد الى حد كبير فى القاء الضوء على الاساطير القديمة الموغلة فى القدم ، وعلى تلك التى لا تزال حية فعالة فى المجتمعات البدائية ، القريبة من البدائية فى عصرنا الحديث . ولعل ظاهرة التذكير والتأنيث للاجرام السماوية تتصل بنتائج انصار هذه المدرسة ، ذلك لان التذكير والتأنيث ، وان كان امرا مجازيا فى المتأخرين ، الا انه كان حقيقيا عند الانسان البدائى او القديم ، كما ان اختلاف اللغات فى مثل هذه الظاهرة يمكن ان يرد الى طبيعة التشخيص فى الاساطير الخاصة بالشمس والقمر وسائر الكواكب ، فنحن نؤنث « الشمس » ونذكر « القمر » فى

---

١٠ - An introduction to Mythology, op. cit وما بعدها .

اللغة العربية ، وغيرنا يفعل العكس · فاذا التفتنا الى الاساطير ، التى دارت حول الشمس والقمر عند مختلف الشعوب ، فقد نجد تفسيرا يرجح الباعث على اتخاذ هذا الاتجاه او ذاك ·

واذا انتقلنا الى المدرسة الانثروبولوجية ، واجهنا عالما كبيرا يتصل بدراسة المجتمعات العربية بصفة عامة والجاهلية فيها بصفة خاصة ، وذلك العالم هو وليام روبرتسون سميث William Robertson Smith (١٨٤٦ ـ ١٩٩٤) ولقد شغل منصب استاذ اللغة العربية فى جامعة كمبردج عام ١٨٨٣ · ومن اهم مصنفاته كتاب « ديانة الساميين » Religion of the Semites وكتابه « القرابة والزواج فى الجزيرة العربية قديما» Kinship and Marriage in Early Arabia ومن رأى هذا العالم ان الاساطير كانت بمثابة العقيدة فى الديانات القديمة ، ولهذا الرأى خطورته فى موضوع العلاقة الحميمة بين الميثولوجيا والفولكلور ، ذلك لان التراث المقدس لشعب من الشعوب يتخذ شكل قصص تدور حول الآلهة ، وتفسر فى الوقت نفسه جوهر الفكرة الدينية عند الشعب والشعيرة التى تحققها · ولكن روبرتسون سميث اسرف ، الى حد ما ، فى الفصل بين الفكرة والشعيرة ، وذهب الى ان الاسطورة لم يكن لها قوة الالزام عند معتنقيها ، ومن ثم لم تكن تمثل حلقة جوهرية فى الديانة · ومن الانصاف له ان نسجل رأيه ، فهو يقرر ان « الاساطير المرتبطة بمقدسات الفرد

وطقوسه ليست الا جزءا من العبادة ، فهى تقوم باثارة خيال العابد واهتمامه · بيد انه كان كثيرا ما يترك له الخيار بين روايات مختلفة ، لموضوع واحد بشرط ان يؤدى الشعيرة بدقة كاملة ، وليس هناك من يبالى بما يعتقده فى اصلها · ولم يكن الاعتقاد فى طائفة معينة من الاساطير اجباريا ، باعتبارها جزءا لا يتجزأ من العقيدة الدينية ، ولم يكن يظن أن الانسان يكتسب باعتقاده فى تلك الاساطير مكانه دينية ممتازة ، ويحظى تبعا لذلك برضى الآلهة اما الأمر الاجبارى حقا أو الذى يكسب صاحبه رضى الآلهة فهو القيام باعمال معينة لها صفة القداسة المنصوص عليها فى العرف الدينى · ونتيجة هذا كله ان الاساطير ينبغى الا تحتل مكان الصدارة الذى كثيرا ما اتخذته فى الدراسة العلمية للعقائد القديمة »

ويستخلص الباحث من هذا الرأى ومن غيره من آراء روبرتسون سميث ان الاسطورة تستمد وجودها من الشعيرة ، وليس العكس ، وان هذه القاعدة تكاد تنطبق على جميع الاساطير على اختلاف الشعوب والعصور · وبنى هذا العالم الانثربولوجى الكبير رأيه على ما لاحظه من ثبات الشعيرة على صورتها وتعرض الاسطورة للتغير المستمر ، تبعا لما يمر به المجتمع من تغيرات · والخط الفاصل

الفاصل بينهما ان احداهما لها صفة الالزام ، والثانية تخضع لحرية الانسان ومزاجه(١١) ٠

والباحث فى الاساطير من وجهة النظر الفولكلورية ، مطالب بأن يعنى بالشكل القصصى أو التسجيلى عنايته بالشعائر والطقوس ٠ وهذه العناية تكاد ترجح الارتباط العضوى بين المضمون القصصى والاعمال التى تحاكيها ، طبقا لقواعد مقررة فى التراث الدينى للشعوب البدائية أو القديمة واذا اضفنا الى هذه النظرة ما يأخذ به المتخصصون فى علم اللغة العام من رد جميع وسائل التعبير عند الانسان الى اصل واحد ، فاننا نرجح ان الاسطورة فى اصلها عقيدة تحققها شعيرة ، وان الشكل القصصى تفصيل وتسجيل معاصر او متأخر ، وان تعرضها للتغير يرتبط بالوظيفة اكثر مما يرتبط بأى شىء اخر ، وهى تحتفظ بصفتها الاسطورية، ما دامت عقيدة لها قداستها وشعائرها ، فاذا تحولت عن هذه الوظيفة الى غيرها اصبحت عادة أو تقليدا او عرفا اجتماعيا او ملحمة او حكاية شعبية ، ولعل الشمس والقمر والزهرة اصدق مثال على هذا التصور ٠

ويكون الامر اكثر وضوحا اذا نحن التفتنا الى الصفات المستمدة من الوظائف ، فالواقع ان القداسة التى اسبغها

---

١١ ــ المصدر السابق ، الموضع نفسه ٠

الانسان البدائى أو القديم ، وما تجسمه او تشخصه ، قد جعلت التعظيم يتخذ عبارات تتسم بالمبالغة والتفخيم ومع ذلك فالصور شبه الخيالية ، التى ترسم للشمس والقمر والزهرة وسائر النجوم ، فيها من الشاعرية ما اضفى عليها صفة البقاء حتى بعد ان زالت صفة القداسة عنها • ولا تزال بعض التشبيهات الخاصة بالشمس والقمر والنجوم تتردد فى الاثار الادبية على انها انعكاس للخيال الفنى وحده ، مع انها استمرار لصفات ارتبطت بوظائف تبددت وانقرضت • وليس من شك فى ان العجب والاعجاب والروع قد صاحب الكواكب بصفة عامة ، والشمس والقمر بصفة خاصة ، ففى الشروق والغروب وفى بلوغ الاوج ، وفى تغير الصورة فى المراحل الاولى عنها فى المراحل الاخيرة ، وفى انبعاث النور واختلاف درجاته ، وفيما يعين على ظهوره ، ويعمل على احتجابه ، ما دفع الانسان ، حتى بعد زوال الاعتقاد فى الوهية الكواكب أو فى تجسيمها لآلهة تمثلها ، الى التفنن فى التعبير عنها وعن مظاهرها وصفاتها وآثارها ، فالانوار والالوان والظلمات ، وما تعين عليه من الهادية ، بل وما نؤدى اليه من ادراك مكان الانسان على الارض ، والعالم والسماء ، قد اتخذت صورا وتشبيهات واستعارات ، تتجاوز التركيب البلاغى الى التعبير عن الدهشة والخوف •• عن الرجاء والتوقع •• عن الرهبة والرغبة •• وظلت الشعائر والمراسيم المسايرة للتقويمين الشمس والقمرى ترتبط بالجانب العملى من تلك المواقف النفسية • وحسبنا ان نسجل ما تمثله الاعياد

والمواسم الى الان من عبارات وحركات وايقاعات وموان مشكلة ·

وعالمية الظواهر الطبيعية الكونية وعلى رأسها الشمس والقمر والنجوم ، قد اثمرت اساطير خاصة بها فى جميع البيئات وفى كثير من العصور · ولن يتسع هذا الفصل لاستيعاب اكثر هذه الاساطير ، او حتى للاشارة اليها ، ويكفينا ان نذكر الاله البابلى « شمش » لانه يرتبط بالكلمة العربية « شمس » · وهذا الاله يعد من اشهر الالهة البابلية والاشورية على السواء · وتدل الاثار على ان اسمه قد تردد منذ اكثر من ستة الاف سنة · وذهب الاقدمون الى انه ابن « سن » اله القمر ، مما يؤكد ان التقويم الشمسى قد حل محل التقويم القمرى ، كما حدث فى كثير من بلاد الشرق القديم · وتصفه النقوش بأنه « اله النور العظيم » ومن اجل ذلك وصف بأنه « يرسل النور الى الارجاء كافة » وانه « سيد الاحداء » و « مسبغ النعم على الارضين » وما الى هذا بسبيل · وتصوره القدماء يفتح ابواب الصباح ، ويرفع رأسه متطلعا الى العالم من فوق الآفق ، وينير السماوات والارضين بأشعته · ولقد ارتبط النور بالحق والعدل والخير فى نفس الانسان منذ أقدم العصور ، ومن ثم نسب البابليون والاشوريون اليه القدرة على التمييز بين العدل والظلم ، والخير والشر ، والحق والباطل واصبح فى تصور تلك الشعوب القاضى الذى يفصل بين النور والظلمة ، او بين الحق والباطل ، ومثل البابليين

والاشوريون في هذا كمثل سائر الشعوب ، ذلك لان الانسان قد شاهد بوضوح ، مذ درج على الارض ، ان اشعة الشمس تنفذ الى كل مكان ، وتتخطى جميع الاستار والحجب ، فلا عجب ان يصبح الاله « شمش » رمزا للعدالة . ولقد ورد اسمه على رأس النقوش التى سجلتها الواح حمورابى المشهورة ، وفيها يرمز الى العدالة . ولقد ظل « شمش » طوال التاريخ البابلى يحتفظ بمكانته ، ولعله اله الشمس الوحيد الوحيد الذى لم تستوعبه عبادة الاله مرداخ ، على الرغم مما كان لها من سلطان عظيم . وكثيرا ما يوازن علماء الاساطير بين ما كان يتمتع به « شمش » من قدرة على البقاء بحيث لا يستوعبه نجم اخر ، وبين « توتك » اله الشمس عند المكسيكيين القدماء ، وهو الذى لم يضارعه فى هذه المكانة غيره من الالهة . ومع ذلك فان « شمش » استطاع ان يستوعب بعض الالهة المحلية فى البلاد التى استقرت فيها الشعوب السامية ، واصبح اسمه علما على الشمس فى اللغات السامية . وهناك من الاسباب ما يميل بنا الى الظن ان الاله « شمش » لم يكن على الدوام مجسما للخير ، ولكنه كان فى بعض المناسبات يرمز الى الحرب . ولكن النصوص تدل على انه كان يعد فى الازمة المتأخرة من التاريخ القديم ، الاله الذى يهب الحياة ، ويبعث النور الى جميع المخلوقات ، وعليه يعتمد كل شىء فى الطبيعة من الانسان الى النبات .

ولا يستطيع الباحث ان يعرض للاله « شمش » دون ان يذكر قرينته الربة « آية »

التى كانت تعبد معه • والراجح ان ديانتها قديمة موغلة فى القدم ، ويبدو انها لم تكن تتميز بطابع خاص أو فريد • واعتقد القدماء انها كانت تستقبل « شمش » « الشمس عند الغروب ، ومن اجل ذلك قيل انها كانت « وجه الشمس المزدوج » الذى يظهر مكبرا وقت الغروب • ولكن هذا التعديل مبالغ فيه عند كثير من علماء الاساطير ، لان قوة الشمس حينا وضعفها حينا اخر ، ربما اثارا فى مخيلة الانسان البدائى او القديم اقتران القوة بالتذكير والضعف بالتأنيث ، كما ان المزواجة بين الهين فى الاصل تشير الى اتصال ثقافتين •ولم تكن الكتابات المسمارية القديمة تميز فى عالم الالهة بين الذكر والانثى وهذه « عشتار » كثيرا ما ظهرت عند الساميين دون ان تنسب الى الذكور أو الاناث • واغلب الظن ان الجنس كان يتوقف تمييزه على القوة فالاله الاقوى مذكر والاضعف مؤنث ، وان لم لم تكن القاعدة مضطردة فى جميع الأحوال (١٢) •

---

12. The Myths of Bobylonia and Assyria : Lewis Spence, London 1928
ص١٠٩ وما بعدها •

وليس من شك فى ان الشمس قد اثرت ، ولا تزال تؤثر فى مشاعر الناس وعقولها ، وانها صاغت ، ولا تزال تصوغ الكثير من معتقدانهم وتصوراتهم ومراسيمهم وعاداتهم ٠ واذا كنا لا نستطيع ان نسجل مختلف الافكار والاعمال التى تتصل بالشمس ، فان ذلك لا يحول بيننا وبين التوقف عند معيار اقتصادى كبير فى حياتنا المعاصرة وهو الذهب ٠ ومن الطريف ان هذا المعدن النفيس يعود الاهتمام به والاكبار من شأنه الى الشمس ولقد كان الاقدمون يعتقدون ان الذهب انما يتولد من اشعة الشمس ، وان حرارة باطن الارض المستمرة ايضا فى اصلها من الشمس تحرق كل شىء ببطء وتحوله الى ذهب ٠ ومن الطبيعى ان يحاط هذا المعدن بهالة من القداسة عند الانسان البدائى القديم والمعاصر ، وان يتصوره كما تصور الكثير من الكائنات مخلوقا حيا له روح ، ولذلك فرضت بعض القبائل فى جزر الهند الغربية وفى امريكا الوسطى كثيرا من النواهى او المحظورات ، حتى لا تغضب روح الذهب كما يحرص بعض العاملين فى مناجم الذهب فى بعض المناطق على تلاوة صلاة خاصة ، قبل الشروع فى استخراج الذهب ٠ وفى سومطرة لا يجوز للعاملين فى منجم للذهب ان يحملوا اليه صفيحا أو عاجا أو مواد أخرى معينة ، حتى لا تهرب روح الذهب من المنجم ، وكثيرا ما يتم استخراج الذهب فى صمت تام تجلله القداسة والرهبة ٠

ولما كانت الشمس هى التى تبعث بالنور الى الارض فقد ارتبط الذهب بالنور والنار من قديم ٠ ولقد كان الهنود ،

فيما مضى ، يعتقدون ان الذهب هو البذرة التى نما منها الاله « اجنى » وانه هو والنار والنور شيء واحد ٠

وقد وصف الكتاب القديم (ساتابهاتا براهماتا) الذهب بانه خالد لا يفنى ، وانه يجدد نشاط الجنس البشرى ، ويهب مالكه عمرا مديدا وذرية كثيرة ٠ وجاء فى « الريجفيدا » ان من يجود بالذهب تمنحه الالهة حياة مشرقة مجيدة ٠

ومن المعتقدات السائدة عند الهنود الاقدمين ان الشمس هى التى اضفت على الذهب لونه الجميل وبريقه الخلاب ، وان الذهب انما يستمد بريقه من نور اله الشمس ، ومن ثم اصبحت لهذا المعدن النفيس علاقة بالحياة والخصب والنماء٠

وكان المصريون القدماء يعتقدون ايضا ان الهالشمس « رع » هو الذى خلق الملوك ، وانه هو الذى وهبهم الحياة والقوة والسلطان ٠ ولهذا ساد الاعتقاد بأن ماء رع ، وهو ذهب الالهة وسائل الشمس المضيء ، ويجرى فى عروق هؤلاء الملوك ٠

واقترنت كلمة « نوب » ومعناها الذهب فى اللغة المصرية القديمة ،بالربة هاتور « الام الكبرى » وهى الهة مصرية كانت تصور على هيئة بقرة تحمل بين قرنيها قرص الشمس ، أو تمثل فى صورة امرأة لها قرنا بقرة بينهما قرص الشمس ٠٠ وكانت هاتور ربة الخصب وراعية للنساء والزواج والهة

الحب والطرب والجمال • وكانت تحيط جيدها بعقد من القطع الذهبية ، مما يفسر ارتباط الزينة عند المرأة بهذا المعدن النفيس ، وحرصها على اقتناء الحلى الذهبية ، ولعله يفسر ايضا جانبا من تشكيل الذهب في صورة معينة ، وتزيينه بنقوش معينة ، ولما كان الذهب قد اقترن بالام الكبرى «هاتور» واهبة الحيـاة فقد عزا اليه قدماء المصريين قوى سحرية عظيمة ، دفعت الفراعنة الى ارسال بعثات للحصول عليه ، حتى يضمنوا لانفسهم القوة والسلطان والخلود •

ومما هو جدير بالذكر ان بعض الاثريين عثروا على تمثال صغير من الذهب لغزال ، حول رقبته رسم شريط على شارة الربة هاتور ، كما عثروا ايضا على ثور من الذهب ، حول رقبته رباط عليه رسم لرأس هذه الربة •

ورأى ملوك مصر الاقدمون ان عودة الحياة اليهم بعد الموت وخلودهم وارتقاءهم الى مصاف الالهة يقتضى اعداد الوسائل المادية ، التى توصلهم الى هذا الهدف ، وكان الذهب على رأس هذه الوسائل لاتصاله باله الشمس رع ، وما يسبغه على العالمين من نور الحياة • وبالغوا فى البحث عن الذهب وصياغته واستعماله تحقيقا لما ينشدون من سلطان وخلود ، وحسبنا شاهدا على ذلك ما عثر عليه فى مقبرة توت عنخ آمـون •

وهذا الاهتمام بالذهب ، الذى شغل الانسان على مدى التاريخ ، لم يكن لما فى هذا المعدن من خصائص وصفات ،

ولكن لما نسب اليه من تأثير · ولقد حفز البحث عنه النفوس والعقول إلى مغامرات ، ربما تجاوزت فى بعض الاحيان نطاق المقبول او المعقول · وادى ذلك الى ان يبحث القدماء بمنهج شبه علمى ، عن وسيلة تحيل المعادن الاخرى الى ذهب · وبذل الكيميائيون فى العصور القديمة والوسطى جهودا مضنية للكشف عما اسموه « حجر الفلاسفة » ، وهو ـ كما كانوا يعتقدون ـ حجر يمتاز بأنه اذا سحق ومزج بالماء وبعض العقاقير ينتج « الاكسير » ، الذى يحول المعادن الخسيسة الى معادن ثمينة ، وعلى رأسها الذهب بطبيعة الحال · وكلما اصطلحنا فى معاملاتنا على استخدام الذهب ، لابد ان نذكر الاصول الاسطورية القديمة لهذا الاتجاه ، وان نذكر الى جانبه الممارسات والتعابير الكثيرة ، التى ربطت بين الشمس ، كظاهرة ، وبين الذهب ، كمعدن له بعض المشابهة للجرم السماوى ، من حيث اللون والبريق · وما نحب ان نسرف فى رد جميع التصرفات والافعال والتعابير الى اصول ميثولوجية ولكننا نسجل فقط ان الكثير من تراثنا الشعبى له علاقة قريبة أو بعيدة بالاساطير ·

وللذهب مكانة ممتازة فى الفولكلور ، لا لانه محور رئيسى من محاور بعض الاساطير فحسب ، ولكن لانه لا يزال له شأنه فى حياة الانسان المعاصر · ولقد حفل الادب الشعبى على مدى التاريخ بالكثير من الحكايات الشعبية التى ارتفع بعضها الى مصاف الادب الرسمى ، ومنها قصة ميداس ملك فريجيا بآسية الصغرى ، وهو ابن جورديوس وسيبلى ،

ويعد ضـوا الميتراس اله النور عند الفرس .ومن هنـا كانت علاقته غير المباشرة بالشمس . وتذهب الحكاية الى ان الملك ميداس كان مفتونا بالذهب ، لا يفكر الا فى الحصول عليه . وكان يكتنز ما يحصل عليـه منه فى غرفة محكمـة بالطابق الأسفل من قصره . واعتاد ان يقضى فيها الساعات كل يوم ، ولا هم له الا التطلع الى ذهبـه والتغزل فيـه . وتسـتطرد الحكاية الشـعبية فتقول ان ميداس اسـتطاع ان يأسر اله الغابات والينابيع سيلينوس بعد ان فقد وعيه من الشراب . وأستضافة عشرة أيام فى قصره ، ثم حمـله الى ديونيزوس الذى عرض عليه أن يحقق له أى أمنية تهفو اليها نفسه ، فما كان من الملك ميداس الا ان طلب من ديونيزوس ان يمنحه القدرة على تحويل كل شىء يلمسه الى ذهب . وتهلل ميداس طربا ، وهويرى كل شىء فى قصره يتحول الى ذهب ، بمجرد أن يلمسه . وهكذا تحولت قطع الأثاث والجدران والسلم فى قصره والازهار فى حديقته الى ذهب خالص بيد أنه سرعان ما اكتشف ، وهو يتناول طعامه ، ان الخبز واللحم والبيض واللبن والماء تحولت كلها الى ذهب عندما مسها وأدرك أنه اذا ظل على هذه الحال فسوف يموت جوعا لامحالة . وتذهب الحكاية الى ان ابنة ميـداس الوحيـدة اقبلت تبكى ، ولمـا استفسر منها أبوها عن سبب بكائها ، روت له أنها ذهبت الى الحديقة لتقطف بعض الازهار فوجدت أنها تحولت الى ذهب. وعبثا حاول الملك ميداس أن يسرى عنها ، وفى غمرة لهفته انحنى عليها وقبلها ، وما مسها بشفتيه حتى تحولت الى تمثال بارد من الذهب . ولم يصدق الملك ميداس عينيه وفاضت

نفسه أسى ولوعة على ابنته الغالية · وتذهب الحكاية الى أن الملك ميداس أستطاع أن يتخلص من هذه اللعنة باستحمامه في مياه نهر باكتولوس ، وحمل بعض الماء ، وصبه فوق ابنته، فعادت اليها الحياة (١٣) ·

وتدل هـذه الحكاية على أن الوهج والبريق يتصـلان بالنار ، وأن الذهب اذا كان قد اقترن بالشمس فأن له وجها آخر ، يناقض في وظيفته الوجه الأول ، ومن هنا برزت صورة الماء كعنصر من عناصر الحياة ، واتصلت بعالم الأساطير ، واصبحت الكثيرات من الربات موكلات بالانهـار والينابيع ، مرتبطات بالخصب ارتباطهن بدفع الشر أو بعث الحيـاة · ولا تزال عـادات كثيرة ، تستهدف فى ظاهر الأمـر مجـرد التطهر الجسمانى ، تمارسها جماعات ، تجاوزت البداوة ، وأخذت بأسباب الحضارة · وما اكثر المراسيم الاجتماعية ، التى تفرض على أحد العروسين أو كليهما الاغتسال فى ينبوع بذاته ، أو بحيرة بعينها ، أو نهر له قداسـته فى المعتقدات الشعبية · من أجل ذلك كان الدارس الفولكلورى مطالبا ببذل أقصى الجهـد فى جمـع العـادات والتقاليـد والمراسـيم ، وأستقصاء أصولها فى الاساطير والتراث الشعبى · ونحن فى حياتنا اليوميـة لانزال نمـارس ، عن غير وعى ، بعض العادات التى لها أتصال بالشمس · من ذلك اكتسـاب الاطفال

---

١٣ ـــ احمد آدم محمود ، الذهب ومكانته من التراث الشعبى، مجلة الفنون الشعبية العدد ١٣ ، القاهرة ، يونيه ١٩٧٠

عادة التوجه الى الشمس والقاء السن الأولى التى يخلعونها نحوها ، وهم يتضرعون اليها أن تبدلهم بها سنا أحسن منها ، وهى عادة شائعة فى العالم العربى الى الآن · كما أن نقش كعك بعض الأعياد ، على صورة قرص الشمس ، يوحى بأن الشعوب تظل تمارس بعض العادات ، حتى بعد أختفاء العقائد التى أدت اليها · وأهم من هذا كله التقويم الشمسى وارتباطه بظواهر كونية وطبيعية أخرى واقترانه ، وبخاصة فى البيئات الزراعية ، بمعالم لها خطرها فى حياة الانسان ·

وهكذا اتسع مجال الفولكور ، ولم يعد يدرس البقاياوالرواسب من العصور القديمة فقط ، ولكنـــه أصبح يعنى بالبيئة الثقافيـة الحيـــة عنـايته بجميع المعـــارف والخبرات والمهارات الشـــعبية ، أيا كانت مكانتها مـــن التراث ، وأيا كانت وظيفتها فى حياة الأفراد والجماعات ·

والقمر له مكانته الفذة الى جانب الشمس فى تصور الانسان القديم والمعاصر معا ، ولذلك يعد احد النيرين الكبيرين اللذين يؤثران فى ظواهر الطبيعة والحياة والكون · وهو من المحاور الرئيسية للفكر الأسطورى عنـــد الانســـان القديم ، ولذلك رفعه الى مقام الالوهية والتقديس كما اتخذه وسيلة أساسية فى تقسيم الزمان الى وحدات متساوية هى الشهور ، كما أن ما لاحظة الانسان من التغير الظاهرى فى شكل القمر

جعله يقرن هذا الكوكب بما يلاحظة على الكائنات الحية من نموذج ، يبلغ حدا معينا من الاكتمال ، ثم يأخذ بعده فى التناقص والأقوال • وجعل الانسان القديم القمر من المعالم ، التى يتوسل بها فى التفاؤل والتشاؤم ••• يتفاءل بهلال أول الشهر ، ويتشاءم بالخسوف ، الذى يجعل صورة القمر تبدو حمراء كالدم • ولاتزال الى الآن عقائد شعبية كثيرة ، ترتبط بتلك الظواهر ، بل ان الالفاظ الدالة على القمر فى كثير من اللغات لاتزال تحمل هذه المعانى • يضاف الى هذا كله أن تذكير هذا الكوكب أو تأنيثه ، كما هو الحال فى الشمس وسائر الأجرام السماوية ، أنما يعود الى التصور الاسطورى عند الشعوب ••• وهناك شاهد له اهميته ، يدل على ان شعبا واحدا يجعل القمر كائنا مذكرا فى النصف الأول من الشهر القمرى ، أى فى مرحلة النمو ، ويجعله كائنا مؤنثا فى النصف الثانى من الشهر ، أى فى مرحلة الافول • ولما كان القمر مرتبطا بالليالى فى حياة الانسان ، فقد تصوره كائنا حكيما ، يعرف بالتعقل والاتزان في السلوك ، وجعله رمزا للخير والخصب والجانب الايجابى من الحياة فى الغالب ، وقرنه بالمطر والغيث • ولما كان القمر يرتبط أيضا فى تصور الانسان من قديم بالطمث عند المرأة ، أو بالتحول من مرحلة الطفولة الى مرحلة المراهقة وما تثيره من صورة الغريزة ، فقد أصبح القمر يدل ايضا على الحب والشهوة والنزق • وفى الفولكلور عادات وتقاليد ومراسيم واحتفالات خاصة بالقمر ، عند ظهوره وعند اكتماله وعند خسوفه ، وهى تتشابه فى حوافزها ووظائفها وبعض اشكالها ومضامينها ، وتختلف باختلاف

الشعوب ومراحل التطور الفكرى فى بعض العلاقات والتفاصيل . ومن الخير أن نسترجع فى هذا المقام أساطير بعض الشعوب ، التى دارت حول القمر ، لكى نتبين الفرق بين الحلم والواقع من جهة ، وبين بدايات الفكر الانسانى من جهة أخرى .

ولقد أحتفلت الاسطورة المصرية القديمة بالقمر قبل عصر الاسرات بزمن غير قصير . ويرتبط بهذا الكوكب الاله تحوت الذى كان كاتب الآلهة فى مصر القديمة ، والمشرف على حساب الموتى ، واحد الذين خلقوا الكون ونظموه ، واله الحكمة والسحر والتعليم ، وراعى الفنون ومخترع الكتابة والأرقام والحساب والهندسة والفلك ، وما اليها من المعارف، التى أحاط بها المصريون القدماء قبل عصر الاسرات . ومن الطريف أن المقامرة وهى كلمة عربية من مشتقات القمر ، لنها شبه صلة بالاسطورة المصرية القديمة التى ذهبت الى ان رع استشاط غضبا من خيانة زوجته نوت ، وهى آلهة السماء مع سب اله الارض ، فحكم عليها بالا تلد فى أى شهر من شهور السنة . وما كان من تحوت الا أن لاعب القمر ... أو بتعبير أدق لعب معه القمار على جزء من اثنين وسبعين جزءا من اليوم ، واستطاع أن يغلبه فى المقامرة ، ويكسب منه خمسة أيام ، أضافها الى السنة القمرية المصرية ، وكانت ٣٦٠ يوما . وهكذا أستطاعت نوت أن تنجب أوزوريس وايزيس ونفتيس وست وحورس الكبير . وعلى هذا اضيفت أيام النسيء وتوازنت السنة القمرية مع السنة الشمسية .

وكان بحكمته واتزانه قادرا على أن يفض المشكلات ، التى تنشأ بين الآلهة ، كما كان على علم بالصيغة السحرية التى تمكن الموتى من اجتياز العالم السفلى بسلام · وهذا الاله المرتبط بالقمر هو الذى تدخل فى الصراع بين اوزوريس وايزيس وحورس من جانب ، وبين « ست » من جانب آخر · وتحوت ـ كما يقول مؤرخو الأساطير ـ من أقدم الآلهة المصرية ، واستوعبته فيما بعد عبادة ازوريس ورع ، وكان يتمثل فى صورة أنسان ، له رأس العجل ابيس ، يحمل القلم والدواة ، باعتباره كاتب الآلهة ، كما كان يبدو فى صورة قرد ، على رأسه القرص القمرى والهلال وقلما بدت صورته مراجعته منفردا ، وكثيرا ما ظهرت وسط الحفل الجنائزى على رسوم المقابر · ومن أشهر صورة مراجعته حسنات الموتى وسيئاتهم ، أو مساهمته فى يوم الحساب ، يقرأ الميزان الذى كان القلب الأنسانى يوزن فيه مقابل ريشة الحقيقة · ومن الواضح أن علاقته بالحساب والقياس جعلته يرتبط بالقمر ، واصبح يرادف الاله هرمس عند اليونان · وهو الذى اسبغت عليه صفات الاله المصرى القديم تحوت · ويعتقد بعض الدارسين أن مجموعة أوراق اللعب التى نعرفها اليوم ، أنما هى تطوير لكتاب هيروغليفى قديم ، يعرف أحيانا باسم « كتاب تحوت » ·

ولما كانت السنة البابلية قمرية ، فقد احتل اله القمر البابلى « سن » مكانا بارزا بين الآلهة والراجح أن أرتباطة بالتقويم جعله يكتسب اللقب الذى اشتهر به ، وهو « اله

الحكمة » ، مما يدل على التصور العــام للقمر بالاتزان فى الحركة وفى السلوك · وكانت مدينة « اور » مقر عبادته · ولقد اكتنف الغموض الأسطورة الخاصة به الى حد كبير ، بيد أننا نلاحظ مدى اجلاله من أحد النصوص ، التى عثر عليها فى مكتبه اشوربانيبال ، والذى يصفه بأنه « اله يسمع حبه السموات القصية والبحر والمحيط » ·

وكما ارتبطا اله القمر المصرى تحوت بالاله رع فاننا نجــد ان اله القمر البــابلى « ســـن » يرتبط هــو ايضــا باله الشـــمس « شمش » · ومـــن الشـــواهد على ذلك أن « جلجامش » المشهور ، عنــدما امتلأ قلبـــه بالفزع مـــن الموت ، بادر بالرحلة الى سلفة « اوت ـ نابشتيم » طلبا لماء الحيــاة وكان عليه أن يجتاز سلسلة من الجبال ، تقطعها وحوش ضارية · وخلصه « سن » من براثنها ، واستطاع « جلجامش » أن يتابع رحلته فى أمان ، ولكنه انتهى آخر الأمر الى جبل أعظم ارتفاعا من الجبال السابقة ، على حراسته رجال كالعقارب ، وهو جبل « ماشو » الذى تغرب عنده الشمس ·

وهناك حلقة أخرى ، تضاف الى الأسطورة البابلية ، التى تجعل من « عشتار » ابنة لاله القمر ، « سن » وتقرنها بعد

ذلك بما وراء الحياة • والاسطورة تروى كيف أن عشتار أتجهت بآذانهـا الى الأرض التى لا يعـود منهـا أحـد ، أرض الظلمات ، مما يشير الى الموازنة المستمره فى الخيال الاسطورى ، بين القمر وبين الظلمات التى تكتنفه •

وتحول الاله البابلى « سن » عند الاشوريين الى اله حرب • ويبدو أنهم حولوا جميع الآلهة ، التي استعاروها من الشعوب الأخرى الى آلهة حرب • ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الصفة الحربية لا توجد عند الهة القمر ، على اختلاف الأساطير والشعوب ، الا عنـد الاشوريين وان كان الاقوام البدائية قد اسبغت على القمر بعض الصفات ، التى تثير الروع • ولكننا نجد « سن » عند الاشوريين متحررا من جميع الدلالات والرمـوز المتعلقـة بالتنجيم أو الفـلك ، وان كان الاشوريين قد اسبغوا على اله القمر « سن » بعض الصفات ، التى اسبغها المصريون على « تحوت » مثل الحكمة وسداد الرأى والمبادرة الى أتخاذ الأوامر والنواهى ، التى تضبط سير الحياة • وقد صور هذا الاله احيانا على بعض الاختام فى صورة شيخ له لحية مرسلة والرمز الخاص به هو الهلال •

وليس هنـاك ادل على مكـانة اله القمر « سن » من أن الثالوث الاعظم بين آلهة بابل كان الشمس والقمر والزهرة • لقد دعا آخر ملوك بابل الى عبادة « سن » ، باعتباره ارفع الآلهة البابلية شأنا ، وذلك لأن الثالوث الذى

يتألف من الشمس والقمر والزهرة كان فى
نظر الشعب البابلى وقتذاك مصدر القوى
المؤثرة فى العالم والكون • ويظهر بعض
الدارسين أن شبة جزيرة سيناء أخذت أسمها
من اله القمر « سن » •

ولكننا اذا اتجهنا الى اليونان وما عرف عنهم من الأساطير الكثيرة الرائعة فانا نلتقى عند تشخيص القمر فى صورة الهة هى « سيلينى » ، وهى الهة القمر وابنة « هيبيريون وثيا » ، تتسم بالشاعرية • والاسطورة تذهب الى ان جمال انديميون فتن آلهة القمر سيلينى ، فهبطت على جبل لاتموس لكى تقبله ، وهو غارق فى النوم ، ثم ترقد الى جانبه • وكما حدث لكل انسى ، عشقته واحدة من الآلهة ، فقد تعرض انديميون لما يشبه الهلاك • وسواء دعا زيوس كبير الالهة ان يمنحه النوم الى الابد ، حتى يستمتع بلقاء الهة القمر فى احلامه ، أو أن سيلينى سحرته ، لكى تنعم بصحبته على الدوام ، فقد استغرق فى نوم ابدى • وعرف بأنه عاشق القمر ، الذى لا يصحو ابدا • وثمة رواية أخرى تذهب الى ان سيلينى الهة القمر استسلمت للاله « بان » فى مقابل جزة بيضاء من الصوف ، ولعله ظهر لها فى صورة كبش أبيض • وهى تصور ممتطية عربة ، يجرها جوادان مجنحان أو بقرتان ، ويظهر الهلال فى صورة قرن بقرة ، كرمز خاص بها • كما تبدو ، ممتطية جوادا أو بغلا أو غزالا أو كبشا • وأشتهرت بأنها تمنح القوة على الاخصاب والنمو فى عالمى

النبات والحيوان . ويدعوها الناس عند ظهور الهلال ، وعند اكتمال القمر بدرا . وفى العصر الهلينى اعتقد الشعب بأن سيلينى هى المقر ، الذى تأوى اليه أرواح الموتى ، وفى هذا مشابهة لمعتقدات المصريين القدماء ، التى تقرن القمر بالظلام وبما وراء الحياة . واصبحت فى المراحل الأخيرة من العصر اليونانى ترادف آلهة إخرى لعل اهمها « لونا وارتيميس » . ونتجه بعد ذلك الى صورة مؤنثة أخرى للقمر فى الأساطير اليونانيــة ، هى صــورة ارتيميس الربــة العذراء للطبيعــة والقمر ، وكانت فى الأصل آلهة البحيرات والأنهار والغابات والحياة البرية ، وبخاصة حيــوان الصيد ، مثل الغزال ، والوعل والخنزير البرى ، وقد ارتبطت مثلها فى ذلك مثل كثير غيرها من ربات القمر ، بالحب والخصب . ومن الطقوس التى اقترنت بارتيميس والتى تجسم التحول من مرحلة الطفولة الى مرحلة المراهقة التى تتفتح فيها النزعات الجنسية والعاطفية، أن ترقص الفتيات مــن الخامســة الى العــاشرة فى ملابس زاهيــة ، يمثلن الدببة . ولم يكن يسمح فى بعض منــاطق عبادتها بزواج أى فتاة قبــل أن تقوم بهــذه الشعيرة . ومن المؤلوف أن تقترن ربة القمر ارتيميس بالطبيعة ، ولذلك نراها ترعى الصيد والغابات والنبات البرى ، ويعاونها الحوريات والموكلات بالآبار والينابيع . وفى ربوع كثيرة من بلاد اليونان القديمة كان بعض الراقصين يلبسون الاقنعة ، وهم يحتفلون بشعيرة من شعائر ربة الطبيعة والقمر ارتيميس . وكانت الفتيات يغنين انشــودة قبيل الفجر وتذهب بعض الروايات القديمة الى أن الفتيات كن يقدمن لارتيميس محراثا ، وهذا

يدل على أن الآلهة بسطت رعايتها على الفلاحه المعتمدة على ارادة الانســـان ٠

وليس من غرضنا أن نفيض فى ذكر سيرة ارتيميس ، كما وردت عنــد هوميروس وغيره ، وحســبنا أن نسجل أن سلطانها امتد الى السحر والليل والقمر ، وأنها كانت حاملة شعلة قد تكون رمزا للقمر ٠

ولعــل اسم ربة القمر « لونا » لا يزال مرددا الى اليوم ، وهى أن لم تبلغ فى وقائعها وشعائرها ما بلغته ارتيميس ، الا أن ارتباطها بالقمر جعــل الفكر الأســطورى يقرنهـــا بالسلوك غير المعقول ، فقــد كان من عقــائد الانسان قديما ان القمر يؤثر فى سلوك الناس ويخرجهم عن جادة التعقل ٠ وهكذا أجتمع فى تشخيص القمر النقيضان : الحكمة المتزنة، كمــا يمثلهــا الاله المصرى تحــوت والنزق والتهوس ، بــل الجنــون الذى تمثله ربــات الطبيعة البرية ، اللائى صــورتهن الأساطير موكلات بالقمر أيضا ٠

ولعــل الاله الرومــانية المشــهورة « ديانا » ترادف « ارتيميس » فى ارتباطها بالطبيعة والصيد والقمر ٠ ولقــد اصبحت كزميلتها آلهة الخصب والحب أيضا ، ولكنها أمتازت

بعلاقتها الوثيقة بالتقويم القمرى ، واصبحت من اجل ذلك الهة الزراعة والحصاد ٠

ومن الطبيعى أن ترتبط طقوس هذه الآلهـة بالسحر ، وأن تعد راعية السحرة فيما بعد ذلك ، لأن الهة القمر تستدعى بالضرورة ، فى الفكر الأسطورى ، الظلام والغموض والتحول والخروج عن المرئى والمحسوس والمدرك الى الخارق وغير الممكن وغير المعقول ٠ وتذهب ، لترسى دعائم السحر ، وتؤيد الساحرات ، ثم عادت الى السماء ، ومن هنـا كانت صيغ السحر توجه فى كثير من البقاع الأوروبية الى آلهة القمر ديانا ، والى ابنتها اراديا (١٤) ٠

ولم ينقطع الناس فى أكثر الارجاء عن أقامة مراسيم معينة ، لدفع الخسوف أو الكسـوف عن الشمس والقمر ٠ ولا يزال لهذه المراسيم مكانها من النفوس ، حتى عند كثير من الشعوب ، التى أخذت بأسباب الحضارة ٠ وأقامة هذه المراسيم تؤكد الأصرة القوية بين الميثولوجيا والفولكلور ٠ وجميع الحركات والاشارات والأدوات ، التى يتوسل الناس بها فى هذه المناسبة ، تستهدف دفع الضرر الجسيم ، الذى ينجم من تصور النذر بانقطاع الشمس والقمر عن رحلتهما اليومية ، وهما مصدر النور ، ولهما علاقة جد وثيقة بنشأة

---

١٤ ــ للكاتب ، القمر فى أساطير الشعوب ، مجلة الفنون الشعبية ، العدد العاشر ، سبتمبر ١٩٦٩ ، القاهرة ٠

الحياة ونموها على الارض · وكما أن الملوك الأقدمين والكهان فى التاريخ القديم كانوا يقومون بشعائر معينة ، فان المجتمعات البشرية لاتزال تمارس الكثير من الطقوس · ولو اننا دققنا النظر فيها لوجدنا هياكلها تحتفظ بالتصور الاسطورى القديم، أو ما يقرب منه ، فاستحداث الصخب العنيف ، لترويع الكائنات المحدقة بالشمس أو القمر ودق الطبول والصياح ، والطرق العنيف ، وترديد عبارات معينة ، والقاء السهام النارية في اتجاه الشمس أو القمر ، أبان الكسوف أو الخسوف كل اولئك شارة على أن الفولكلور ، على الرغم من تداعى الكثير من النظريات ، التى غلبت على علم الأساطير فى القرن الماضى ، لا يزال يعنى بحلقات ميثولوجية ، أولها أصل ميثولوجى واضح · ولقد جمع الانثروبولوجيون ، والفولكلوريون شواهد كثيرة من تلك الطقوس والمراسيم · ولعل فى ما يحفظة الشعب العربى من تخيل القمر عند الخسوف ، ما يؤكد هذا القول ، فأن الخيال الشعبى قد صور أن بنات الحور يخنقن القمر · وهذا هو سر الخسوف · ومن أجل ذلك يقوم الناس عند حدوث الخسوف بترويع بنات الحور ، حتى يطلقن القمر من أسارهن · وكانت الزهرة تؤلف مع الشمس والقمر الثالوث الرئيسي عند الساميين الاقدمين ، كما يذهب الى ذلك لانجدون (١٥) وهى ترداف افروديت

---

15. S.H. Langdon, The mythologyo Fall the world, Nor Wood Mass 1931, Vol. 3, P. 25.

اليونانية وفينوس الرومانيـة وعشـتار البابلية · وهى آلهة الفتنة والجمال ، وارتبطت بالحب والشهوة · ولقد احتفلت الشعوب جميعا بهذا الكوكب ، الذى يعد من الناحية الفلكية الثـانى من حيث القرب الى الشمس وهكذا اقترنت الزهرة بالاقبال على الحيـاة والمبالغة فى السرور والمتعة · وكان الاحتفال بها يقام فى التحول من الشتاء بقتامته وبرده وتجرد أشجاره ، الى الربيـع بنضرتـه وخضرتـه وتبرج الطبيعة والحياة فيه · وبلغت الشاعرية أوجها ، وفيما يتصل بالربيع بتلك الممارسات التى لجأت الى جميع وسائل التعبير · ولقد نسـب « هزيود » الى « افروديت » أن من صفاتهـا الدلال والسحر والمكر الى جانب ما تشيعه من البهجة والوداعة · وكانت عند الشعراء الغنائيين القدامى مثلا أعلى للشـباب والحب والجمال · ولم يكن الشعب العربى فى جاهليته بدعا بين الشعوب فقدس الزهرة ، ونسب اليها الحسن والجمال والفتنة والطرب · وقد دعيت كما سماها المنجمون بالسعد الاصفر لانها فى السـعادة لون المشترى ، وأضـافوا اليها الطرب والسرور ، واللهو (١٦) · كما أن النظر اليها يوجب الفرح ، وتخفف عن الناظر اليها احيانا حرارات العشق اذا كان عاشقا ، كما أنهـا تثير غريزة الجنس (١٧) ·· وكل دراسـة للعناصر الميثولوجية المرتبطة بالزهرة عنـد العرب

---

١٦ ـ القزوينى : عجائب المخلوقات ، جوتنجن سنة ١٨٤٩ ص٢٢ ·

١٧ ـ المصدر السابق ، ص٢٣ ·

ترجح ، ان لم تؤكد ، انه قد كانت هناك في الجاهلية أساطير ، يتداولها العرب قبل الاسلام ، ويقيمون لها الطقوس · ويذهب الدارسون للمعتقدات العربية القديمة الى أن الزهرة عرفت عند العرب بأسماء أخرى ، حسب ظهورها بعد غروب الشمس أو قبل شروقها ، فكانوا يدعون نجمة المساء « عتر » وهى أيضا « استار » أو « عترعنا » · أما نجمة الصبح فشاع اسمها « العزى » أى الالهة السامية (١٨) ·

وتكاد تتشابه جميع الاحتفالات بالربيع فى أكثر بقاع الارض ، فان التبرج والتحرر ، الذى يتجاوز الاتزان فى السلوك الى العربدة ، هو السمة الرئيسية لهذه الاحتفالات، التى تقع بين شهرى ابريل ومايو من كل عام ، وهى أيضا من المراسيم التى اثمرها التقويمان الشمسى والقمرى · واذا كان المنهج العلمى يوجب على الدارسين الا يتجاوزوا الملاحظات الواقعية الى التعميم القائم على الفرض ، فان الوظيفة هى المعيار الأول والأكبر ، الذى يبين وجوه التماثل والخلاف ومداها · وعلى هذا الأساس يكون الاحتفال بالربيع مظهرا من مظاهر الاندماج فى الطبيعة والأقبال على الحياة ، فى الماضى وفى الحاضر على السواء ·· فى الارتباط ، بالينابيع والأنهار ·· بالنماء والخصب ، كما يبدو فى الاشجار

---

١٨ ــ محمود سليم الحوت : فى طريق الميثولوجيا عند العرب ، بيروت سنة ١٩٥٥ ، ص٧٦ ·

والثمار ·· بالحب والجمال فى الحفلات التنكرية وغيرها ، مما يجعل الدراســـات الانســـانية تتخذ فى المرحلة الأخيرة منهجا تكامليا ، يتعاون فيـــه علماء الميثولوجيا والفولكلور والانثروبولوجيا والنفس جميعا ·

الفصل الثالث

الأسطورة والرمز الفني

وعندما يطلب مؤرخ الفنون القرائن ، التى تثبت أو ترجح بدايات الاتجـاه الانسـانى الى الابداع الفنى ، فان المتخصصين فى الميثولوجيـا يمدونـه بوصف الظواهر التى تجمعت لديهم ، من الآثار القديمة الموغلة فى القديم ، ومن الملاحظات الواقعية للجماعات ، التى لا تـزال فيها آثار من بدائية أو بداوة ٠

ويكاد يتفق علمـاء الآثار والانثروبولوجيا والتـاريخ والاثنولوجيا على أن الفكر الأنسانى قد مر فى فجر تاريخه ، ولايزال ذلك ملحوظا عند البدائيين والبدو ، بمرحلة طويلة ، لا ينفصل فيها الفكر عن التعبير ، وهم من أجل ذلك يتصورون أن الاجابة على الاسـئلة العقليـة والتعبير عـن المواقف الشـعورية ، ازاء التغيرات المنظمـة والفجائيـة فى الكون والطبيعة والحياة ، كانا نشـاطا انسانيا واحدا وجميعا ، وليس معنى هذا التصور أن كل محاولة للأجابة عن تساؤل شبه علمى ، أو تعبير عن موقف وجدانى كان يتسم بوساطة المجتمع البدائى ، ولكن المعنى ان الأفراد والجماعات كانوا يصدرون عن عرف ثابتا وتقليد لا يكاد يتغير ٠ ومن اليسير ان نفترض خطا فاصلا بين الحافز على نشأة العلوم والحافز على نشـأة الفنـون ، فى تلك المرحلة من مراحـل التطور الانسانى : الأول يتشعب عن التفسير ، وان كان ينزع الى التجسيم والتشخيص والتمثيل ، وينأى بجانبه عن التجريد ،

والثانى يتفرع عمـا فى المعتقد البدائى من أثارة لعواطف الروع ، أو استجابة لتحقيق رغبات مادية واجتماعية • ولقد كانت الاسطورة تقوم بوظيفة تجمع بين هذين الحافزين • لتحقيق رغبـات مادية واجتماعية • ولقد كانت الأسـطورة تقوم بوظيفة تجمع بين هذين الحافزين وحسبنا الآن أن نتجه الى الحافز الثـانى ، الذى يرجح عنـد الباحثين انه الجسر المباشر بين الاسطورة من ناحية ، وبين الفنون على اختلاف وسائلها واجناسها من ناحيـة أخرى • وهـذا الجسر هو الشعيرة أو الطقس • وقد سبق ان ذكرنا ان هذا الجانب ، المتحقق بوسائل التعبير كلها أو جلها ، دعامة أساسية من دعائم الأسطورة ، بالمفهوم الذى رجحناه •

والشـعائر والطقوس ، عنـــد معظم المتخصصين فى العلوم الانسـانية ، مـادة أصيلة من مواد الدراسات الدينية المقارنة • وهناك سؤال يطرح نفسه دائما على كل من يتعرض لهذا الجانب من النشاط الانسانى • ماذا يحدث عندما ينسى الناس الباعث الاصلى على القيـام بشـعيرة أو طقس ، لقـد دلت الملاحظات والشواهد على ان اسطورة جديدة تنشأ ، لتفسير الشعيرة المجهولة ، الاصل • وبالعقـل النزاع الى التفســير بالتجسـيم والتشـخيص والتمثيل تولـد الاســـطورة الجديدة ويكون اصلهـا المنسى ظـاهرة من

الظواهر التى تتطلب التفسير · بيد ان هذه الاسطورة الجديدة ادخل فى مجال العقيدة الثانوية ، وبذلك تكون اقرب الى الفولكلور منها الى الميثولوجيا (١٩) واذن فان الشعيرة نشأت فى الأصل دعامة من دعائم اسطورة أصلية ، وهى بدورها تلد ، أستجابة لتغيرات فى المضمون الثقافى للمجتمع ، اسطورة جديدة ليست فى مقام الأولى ، ولكنها ثانوية ·

ودفعت هذه الحقيقة بعض الباحثين الى القول ان العقيدة البدائية انما تقوم بالرقص ، وهم يذهبون الى ان الرقص البدائى يجمع فى اعطافه بين الاسطورة والشعيرة ، وهو يقوم تبعا لذلك بالحركة والاشارة والكلمة والحركات البدنية تتكرر طبقا لقوالب محددة ، كما ان الاشارات استجابة لدلالات معينة · قد تصور ما يجمله الكلام ، وتؤكد ما يحمل من معنى وقد يضعف عنصر الحركة ، وينحصر فى التصفيق بالايدى والدق بالاقدام تأكيدا لحلقات معينة فى الشعيرة ، تحققها النغمات أو الكلمات · ومهما يكن من شىء فان الحركة والموسيقى والنبرة تؤلف وحدة متكاملة ، وكل عنصر من هذه العناصر الثلاثة لا يمكن ان يواجه ، وهو يقوم بوظيفته الكاملة الا مع العنصرين الآخرين · ومع ان الدارسين

19. An introduction to my mythology op. cit.

للاداب القديمة التفتوا لفن الكلمة أكثر من التفاتهم للفنون الاخرى المتضمنة فى الشعيرة الواحدة فان الميثولوجيين والفولكلوريين يحكمون على العناصر كلها ، وهى تقوم بوظيفتها بصورة متكاملة • ولقد تعود - مثلا - المعنيون بالاداب اليونانية ان يقصروا اهتمامهم على الكلمات التى يرددها الكورس اليونانى فى الاشكال الدرامية القديمة ، وهم يتناسون الحركات والنغمات وليست أقل قيمة من الكلمات • والواقع ان الاغانى والاناشيد قد نشأت من الحركات الايقاعية ، وتدين لها بمعظم خصائصها ، التى أضيفت الى القوام الأول للشعيرة ، وهو الحركات والاشارات والايقاعات والصيحات ، التى لما تتبلور فى كلمات • ومن المسلم به الآن ان الحركات كثيرا ما تقوم بذاتها مستغنية عن الكلمات • وعلى العكس فان الأغانى والأناشيد الجماعية ترتبط ، فى الغالب الأعم ، بالحركة ، والاشارة والايقاع • ومن هنا نستطيع ان نقرر ان الرقص وما يماثله شائع بين المجتمعات البدائية وهذا ما يجعل مؤرخى الأغانى يرون أن الاغنية تدين لفنون الحركة والاشارة والايقاع بالكثير من الفضل • فهذه الفنون ، أولا وقبل كل شىء ، درامية فى جوهرها ، وهى البدايات الاولية للفنون المسرحية وهى تزود الانسان عن طريق التصور والخيال بخلاصة التجربة أو الخبرة ، وهو ما نهض به المسرح فى عصور الحضارة بعد ذلك على نطاق انضج واوسع • ومما يثير الانتباه ان تلك الفنون الزمنية تمثل فيها ادوار اناس أو حيوانات ، أو اشياء أو أرواح • والممثلون لهذه الادوار

مقتنعون بأنهم يشخصونها ، وبذلك يجمع الممثل بين شخصيته وبين الشخصية التى يمثلها ، بيد ان الشعيرة التى تتحقق بهذا التمثيل ، تفرض عليه ان يتناسى شخصه وان يندمج ، بما يشبه القوة الخارقة فى الدور الذى يمثله ٠ والجو الاسطورى يشمل النظارة والممثلين معا ، وكثيرا ما يسهم النظارة فى التمثيل ، والجميع يعتقدون انهم يشهدون أو يمارسون شيئا يمت الى عالم مختلف عن عالمهم ولكنه على الرغم من هذا الاختلاف ، واقعى له اهميته فى تصورهم ٠ والتخييل يتم باضافة وصيلة فنية اخرى ، هى تشكيل الكتلة والتوسل بالخط واللون ، كاستخدام الاقنعة وصبغ الوجوه أو الاجساد واستخدام اشياء لها دلالاتها الرمزية الى جانب الكلمات (٢٠) ٠ وهكذا تشترك الوسائل الفنية جميعا فى تحقيق الشعيرة ، وتفسير ظاهرة ، أو تستجيب لموقف فكرى أو شعورى ، أو تدعوا الى حكاية واقع منشود ، أو تحقيق رغبة ، تتجاوز طاقة الارادة الفردية والجماعية ٠

وعالم الفولكلور يقف فى نفس زاوية الرصد ، التى يقف فيها مؤرخ الفنون ، ذلك لأن الشعيرة ، عندما يحللها كل منهما ، فانه يجد فيها مجموعة تقل أو تكثر من الرموز ذوات الدلالات الفكرية والشعورية ٠ كما ان « الوظيفة » **هى** التى تحدد قوام الاسطورة وشكلها ومضمونها ، فان الرمز ،

---

20. C. M. Boura, Primitive Song; London 1962 P.P. 28 - 29.

باعتبـاره جزءا من كل ، ليس مهما فى ذاته ، ولكن الافكار والمشـــاعر ، التى يعبر عنهـا أو التى تتجمع حولــه ، هى الجديرة بالاهتمام • والرموز بطبيعتها أشياء ، بمثابة البؤرة للمشـاعر أو التأملات • وهى من أجل ذلك تنتمى الى عالم الاسـاطير ، حتى ولو ردت الى أصــول دنيوية • وليس لكل منها وجود ذاتى قائم برأســه ، وكلها تتداخل فيما بينها ، وتؤلف نماذج على قدر كبير من التعقيد ، الذى يثير دهشة

أو الروع • ومع ذلك فان تداخلهـا لا يتم ، على غير نظـام أو سياق ، والغموض الذى يكتنف هذه الظاهرة انما يعود الى ان الدراسـات العلمية لما تكتشـف بعد القواعد ، التى تضـبط حركتها نحو التركيب والتعقيد • ولنضرب على ذلك مثلا واحدا من الرموز الفنية المشهورة وهو « العين » التى تعد عند الانسان ، طوال تاريخه ، منظورا له جلاله ، ورهبته، فهى وسيلته ، الى الهداية والى المعرفة • ومع انها جزء من

كيان أكبر ، الا انها أقدر من أى شىء آخر على التعبير عن المشـاعر • ولقد احتفل بها الانســان القديم احتفال الفنان التشكيلى الحديث • ولم يكن عجيبا ان تكون « العين » اشيع الرموز الميثولوجية عند المصريين القدماء • ولقد سجل علماء الاثـار المصـرية ان « العين » كانت عند المصـريين تعبر عما كانت تدل عليه ، فى العصر الحجرى الاخير Neolithic من تجسيم لالهة الخصوبة التى كان يرمز لها بعين واحدة أو أكثر فى ربوع آسيا واوروبا • ولكن العين المصرية المقدسـة كانت معقدة ومشـخصة فى وقت معا ، ولقد ظلت

العين ، عند المصريين القدماء ، رمزا اسطوريا على الالهة الكبرى ، مهما اتخذت لها من أسماء ، تختلف باختلاف الاقاليم ولا بد ان نسجل ما يذكره المؤرخون من ان الاله الاكبر كان ، فى فجر التاريخ المصرى القديم ،يشخص فى صورة صقر جاثم على أحد المبانى أو خارجا من المياه الكونية الاولى ، وكانت عينه اليمنى هى الشمس واليسرى هى القمر · ولا بد ان يتعمق الباحث الدلالات الاسطورية وراء هذا الشكل المعقد المتكامل ·والراجح ان المصرى القديم كان يتصور عين الاله وكأنها عين صقر لاعين آدمى ، ولكنه كان يعتقد فى الوقت نفسه بوجود كائن آخر ، فى صورة انسان أو وجه انسان ، هو الذى « يسيطر على العينين كليهما » ·· أى على الشمس والقمر · وعلى الرغم من هذه البؤرة ، التى تحجمها العين وحدها ، فان أوجه القمر ودورة الشمس كان يرمز لها بالشعائر والطقوس ، أو بعبارة أدق يرمز لها بالاساطير وليس من شك فى ان جميع الشعوب قد ادركت سلطان العين ، مهما اختلفت فى تجسيمها الاسطورى أو الفنى · وهذا السلطان قد تجاوز الوظيفة الحسية لهذا العضو الى وظائف اخرىتتصل بالحياة والخصوبة والقوة ·· الخ · ولقد جسم المصريون القدماء هذا الادراك ، وجعلوه كونيا فى دلالته ، مثلهم فى ذلك مثل كثير من شعوب الحضارات القديمة · وتجاوزوا مجرد التعبير عن النور والحياة الى الجانب الاخلاقى والروحى فى حياة الانسان ، فالشمس ترادف العين الداخلية ، التى تستطيع ان تنفذ الى الاعماق ، وان ترى نوازع السلوك ، وان تسجل ما يصدر

عن الانســان من خير وشر ·· من نفع وضرر ·· وكأنهــا الضمير · ولعل هذا هو الذى جعل بعض نقاد الادب الحديث يوازنون بين الصور الادبية للشمس ، وبين تصور الانسان فى الحضارات القديمة ، فلقد قال شكسبير :

لكم شـــهدت صـــباحا رائعـــا

يرمق فنن الجمال بعين ملكية نافذة

وفى هذا البيت استخدم الشــاعر رمز العين المصرى القديم · ولكننا نعترف بأن ســلطان الشــمس فى المنــاطق الحارة لم يكن معقولا أو نافعا على الدوام ، ذلك لان حرارة الشمس كثيرا ما أصــابت الحياة والاحياء بالتلف · ودلت عند الانســان القديم على الخصب والتخريب دلالتهــا فى مواقف اخرى على الرضى والخصب ، واصبحت رمزا على النار والخراب ، وعلى المشــاعر الانســانية الملتهبة كثورة الغضب · واقترنت العين بثعبان الكوبرا وما ينفثه من ســم زعاف · وفى الرســوم القديمة ظــاهرة التعقيد فى الرمز الاسطورى ، فنحن نشــاهد صورة ثعبان الكوبرا فى مقدمة بعض هذه الرســوم فوق تاج الملك ، تعبيرا عن حمــايته · وهكذا نســتطيع ان نســتخلص الدلالات ، المختلفة للعين فى الميثولوجيا المصرية وكأنها معادلة رياضية :

العين = اللهب ـ الهة الدمار = ثعبان الكوبرا = التاج ·

وتذهب الاسطورة المصرية القديمة الى ان عين الالـــه الاكبر هى آلهـــة الكون العظمى • وتسترسل الاســـطورة فتحكى انها انطلقت فى الميـــاه الكونية الاولى ، اســـتجابة لأمر الاله الاكبر ، لاحضار ولديه شو وتفنوت • وعندما عادت وجدت ان عينا اخرى حلت محلهـــا فى وجه الاله الاكبر • وهذا يفسر غضبها ، الذى يجسم بدوره نقطة التحول فى الكون ، ذلك لان العين لا يمكن ان يسكن روعها تماما • وحولها الالـــه الى كوبرا ، تعمـــل على حمايتـــه وطرد اعدائه ، وتلتف حول جبينه • وللشمس تبعا لذلك دلالتـــــان ، فهى ترمز الى البيت الملكى وما له من جـــاه وســـلطان ، وترمز فى الوقت نفسه الى الشمس المنيرة الحارقة (٢١) •

وطلب النفع أو دفع الضرر بالشعائر والطقوس الموجهة الى الشـــمس يســـتدعى عند المتخصـــصين فى الفولكلور ، ممارســـــات متعددة فى اكثر بقـــاع الدنيـــا ، تتعلق بالعين الانسانية ، وتدل بوضوح على علاقة الفولكلور بالميثولوجيا • ولقد مر بنا ما فى رمز الشمس من سلطان غضوب أو ضار • وهكذا العين فى اكثر البيئـــات الثقافية البدويـــة والمتحضرة

21. R. T. Rundle Clark, Myth and Symbol in Ancient Egypt, London 1959, P.P. 219 - 221.

تتجاوز الهداية الى تأثيرات خفية ضارة • وعلى رأس هذه الممارسات ما يتصل منها بـ « عين الحسود » •

والاعتقاد فى « عين الحسود » وآثارها فى العالم بأسره هو من أقدم الاعتقادات فى تاريخ الانسان • ولقد مر بنا اقتران العين بالشمس والقمر فى الفكر الاسطورى • ولكننا ، استكمالا لعناصر البحث فى علاقة الميثولوجيا بالفولكلور ، نعرض لبعض الممارسات الخاصة بالحسد عن طريق العين وما تنطوى عليه من رموز ودلالات • ومما يرجح ما سبق ان ذكرناه من استحداث اسطورة ثانوية جديدة ، الى جانب نظام اسطورى سابق ، ما نلاحظه من ان بعض الظواهر ، التى تبدوا اجنبية أو غريبة أو شاذة فى عين انسان من الناس ، تدفع بالمجتمع الى استحداث اسطورة ، تفسر هذه الظواهر ، وترتكز فى الوقت نفسه على شعائر ، مهما بدت جزئية ، الا انها تعمل على تحقيق تلك الاسطورة الثانوية • وقد يبدو ارتباط هذه الحلقة الميثولوجية الجديدة بالحلقات السابقة عليها غير موجود ، ذلك لأنه فى واقع أمره قد استخفى على الملاحظة ، لتباعد الحلقة الجديدة عما سبقها • من ذلك محاولة المجتمعات البدائية ، والشعبية تفسير العيون الزرقاء أو التى تميل الى الاصفرار فى البيئات التى تغلب على اهلها العيون السوداء ، وكذلك العكس ، الى جانب ظهور انسانين فى عين واحدة احيانا ، أو ظهور ما يشبه صورة الحصان أو غيره من الكائنات فى احدى العيون ، أو وجود عيب خلقى أو مرضى فى عين انسان •••

كل هذه الظواهر تدفع الى تفسير واحد ، هو ان العين الاجنبية أو الغريبة لها طاقة غير طاقة الابصار ، وهى تعمل على الاضرار بمن تنظر أو تتجه اليه • والمعنى المباشر المستخلص من هذه العقائد الثانوية ان النظام الاسطورى القديم ، الذى قرن التغيرات الكونية والطبيعية بعين الانسان أو الحيوان ، هو الاصل لهذه الاعتقادات فى العين الشريرة أو عين الحسود • وهو يرتبط فى الوقت ذاته بحماية المجتمع من الاجانب الطارئين عليه بالاضافة الى حماية الناس والاموال من الافات والامراض •• وهذه العين كالجرم السماوى ، يصيب من ينعكس عليه عن عمد أو غير عمد • وتأثير عين الحسود لا حد له ، وهو كالنار تقضى على الحياة وتتلف المحاصيل ، وتقتل الماشية ، وتفرق بين الاباء والابناء والاقارب والازواج • وأول من يتعرض لتاثير عين الحسود هم الاطفال ، وكما ان المجتمع يعمل على حمايتهم بتغيير أسمائهم ، بصيغ غامضة أو محقرة ، واستبدال ازيائهم بما يحولهم عن جنسهم الى جنس آخر ، فانه ينزع الى وقايتهم من عين الحسود ، بالاحجبة والتمائم والادعية • واذا اصيبوا يلجأ الاهلون الى ممارسات سحرية تدفع عنهم ما تصوروه من أذى •

ويسجل الاستاذ احمد أمين فى قاموسه عن العادات والتقاليد ، والتعابير المصرية شيوع الاعتقاد فى عين الحسود وهو يقول :

« يعتقد المصريون كثيرا فى الحسد • وخلاصة هذه العقيدة ان بعض الناس عنده خاصية فى عينه ، اذا نظر الى شىء اماته أو اتلفه • ومن غريب الامر ان رجلا عظيما كابن خلدون يحكى مثل هذا ، ويقول انه شاهد بعض الناس اذا نظر الى خروف أو نعجة نظرة خاصة اماتها ، ثم اذا شرحت وجد قلبها قد تحتت • وقال انه رأى فى بلاد المغرب جماعة من هذا القبيل يسمون « الباعاجين » •

« ويعتقد المصريون أن الحسد يكون على اتمه اذا نظر الحاسد وشفع نظرته بالشهيق • وكان من الشائع عند النساء انه اذا نظر رجل تلك النظره اسرعت المرأة ، وقالت « وراك تعبان أو عقربة أو نار » فيلتفت وراءه لينظر اليه ، وبذلك يذهب سحر عينه • ويداوون ذلك بأن يأخذوا قطعة من طرف ثوب الحاسد ، ويبخرون بها المحسود ، سواء كان انسانا أو حيوانا أو شىء آخر ••• ويزعمون أن الحجاب يمنع العين ، ولهم فى ذلك طرق ، منها وضع قليل من الملح الجريش فى كيس ، يعلق فى عنق الاطفال ، وكذلك ناب الذئب أو ناب الضبع أو رأس هدهد عليه ريش ، توضع فى قطعة من السختيان الأحمر ويخاط ، واحيانا يداوون الحسد بالرقى ••••

« واحيانا تأتى بعض العجائز فتوقد نارا ، وترمى فيها شيئا من « الشب » ويذكر اسماء الذين يظن انهم الحسدة ، وتأخذ دبوسا أو ابرة فتضعه فى عين الصورة التى تحول اليها

الشب وتقول : فقأ الله عينها وقد تأخذ قطعة من الورق وتشك فيها الدبوس مرات متعددة فى كل مرة تقول : « من عين فلانة ، ومن عين فلانة ، ثم يبخر المحسود بهذه الورقة مع الملح .. » (٢٢)

وجدير بالانتباه أن أمثال هذه الممارسات تستخدم الرموز الدالة على النار والثعبان والعقرب ، وكذلك الذئب والضبع والهدهد ، وهى جميعا رموز من أصول ميثولوجية مختلفة . وأيا كان المنهج السحرى الذى يلجأ اليه المجتمع فى دفع عين الحسود ، أو اتقاء شرها أو آثارها فان الاصول الميثولوجية لهذه الرموز تبدو فى شيء من الوضوح . واذا تجاوزنا مصر والعالم العربى ، فاننا نواجه الظاهرة نفسها فى رموزها وطقوسها فالمجتمعات الاوروبية تستخدم التمائم والتعاويذ ، وتتوصل ببعض الحركات والاشارات ، وقد تحصن المعروضين للحسد ، وبخاصة الاطفال ، بنماذج صغيرة من الضفادع وغيرها من المخلوقات المنفرة لروح الشر . ومن الشائع فى معظم الربوع فى العالم أن الكثير من اشكال الزينة وادواتها ، سواء أكان ذلك مما يصحب الزى أو يعلق على الجدران والاشياء والحيوانات ، لا يقصد الي التجميل بقدر ما يقصد الى اتقاء عين الحسود . ويذهب بعض الفولكلوريين الى ان

---

٢٢) أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ـ القاهرة سنة ١٩٥٣ ، ص ١٦٦ ـ ١٦٨ .

النقاب الذى تضـعه العروس على وجهها ليـلة الزفاف كان الاصل فيه الوقاية من العين الشريرة ، لان العروس السعيدة هدف لعيون الحاسدين • ومثل هذه الممارسات أو الاساطير الثـانوية كانت الباعث على ظهور العـدد العديد من الرموز الفنيـة ومن أسـاليب التجميل ومن الدلالات ، التى تتجاوز العبارة والصورة والحركة الى ما كان قد صاحبها قديما من مشاعر وتأملات • ولنتجه الى نظام اسطورى بعيد عن بلاد الحضارة ، القديمة ، ولنتوقف فى جزيرة ايرلندة ، ولننتخب أسطورة بالور BALOR ، التى كانت ترتبط بالشمس أرتباطها بفصل الربيع • وتحكى هذه الاسطورة ان ملكا من الفورموريين العمالقة كان ذاعين واحدة ، يصرع بها كل من تقع عليـه • وكانت هذه العين الواحدة مغلقة ابدا ، لاتنفتح الا فى ساحة القتال وكان لهذا الملك أربعة من الاتباع موكلون برفع جفن هذه العين المروعة ، مستعينين فى ذلك بمقيض يمررونه من خلال حافة العين • ولقد حصل على هذه العين وهو طفل ، يختلس النظر الى احد كهان ابيه ، وهو عاكف على اعداد التعاويذ والطلسمات ،فدخل الدخان فى عينه وسممها ، حتى اصبحت تقضى على كل من تنظر اليه • وتستطرد الاسطورة فتحكى أن بالور كان احـد قـادة الفوموريين فى معركـة مـاج تيورد MAG TUREDوفى يـوم المعركة التقى بحفيده لوج LUG فصرخ فى رجاله الاربعة ان افتحوا عينى • وما كادوا يرفعون جفنه ، حتى قذف لوج من مقلاعة حجرا مسـددا ، اصـاب العين القاتلة واقتلعها ، ونفذ بها من خلف رأس بالور •

ويقال انها قتلت فى خروجها عددا من رجال صاحبها • والملاحظ ان هـذا البطل الاسطورى احـد الاجـداد ، الذين صورتهم المجموعات الميثولوجية الكبيرة • والذين كتب عليهم ان يلاقوا حتفهم على ايدى احفادهم • ومن الطريف ان كل واحد من هؤلاء يعرف من النبؤات انه سيلقى مصيره على يد واحد من احفاده • وتتركز احداث كثيرة فى تلك الأساطير حول اطباق الحفيد على غريمه المنشود ، ونجاته منه ، ليلقى الجد مصيره المحتوم ، بعد صراع يقصر أو يطول •• وتؤكد هذه الاسطورة اعتقاد الشعوب الكلتية فى عين الحسود • ومع انها محور هذه الأسطورة ، الا أنها تدخل فى كيان أسطورى أكثر تعقيدا ، يمزج المظاهر الطبيعية والكونية بتفسيرات خاصة بنظام الحكم وبعض الممارسات الشعبية (٢٣) • قارن بين مـا فى هـذه الأسطورة من تفسير للشمس والربيع وللصراع المتكرر بين الفصول ، وبين الاعتقاد في السحر والقوى الخفية ، التى يمكن أن تتركز فى العين •

ولم يعـد هنـاك خلاف حول نشأة الفن الدرامى عـن الشعائر والطقوس التى تقوم بهـا الاسطورة • وهـذا الفن الدرامى يستوعب الكلمة والحركة والاشارة والمادة المشكلة• والشواهد التى جمعها الرحالة من استراليا وغيرها من الجزر القريبة تؤكد هـذه الحقيقة ، وهى تتصـل بتفسير الظواهر

---

23. Standard dictionary of Folklore, Op. Cit., P. 112.

الطبيعية كما تتصل بدورة الحياة الانسانية ، وتحاكى استقبال المولود ولقاء العروسين · ووداع المتوفى ، وتمارس فى مناسبات أخرى مثل الخروج للصيد أو الغرس أو الحصاد أو الاحتفال باختلاف الفصول · ويلاحظ أن الأغانى الطقوسية قدصيغت لكى تلائم الطقوس المتعلقة بها ، وفيها دائما عناصر درامية ، تضيف أبعادا جديدة الى الطقوس · وهذه الأغانى ، وأن اختلفت بعض الشىء عن التعاويذ والرقى والادعية ، الا أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بحركات معقدة ، لولاها لبدت صيغا غامضة لامعنى لها · والذين يؤدونها يمثلون ادوارا درامية ، تشخص أو تجسم الطواطم ، التى ترمز الى أصولهم أو الى اسلافهم الاسطوريين ، أو الى كائنات خارقة لها علاقة أسطورية بوجودهم وفى أغانى الاستراليين الأصليين مشاهد من حيوانات طوطمية ، تجسد كائنات عليا · ومن السهل ان يتصور المرء مرحلة ، تتطور فيها هذه الشعائر ، حتى تصبح أقرب ما تكون الى الأشكال الدرامية الأولى التى انبعثت من الاحتفال بالاله ديونيزوس ، الذى اتخذه مؤرخو الآداب اليونانية معلما على نشأة الدراما بمفهومها الفنى · ولم يكن ذلك وقفا على الاغريق وحدهم ولكنه ينسحب على تطور الفنون الزمنية والتشكيلية فى بلاد الحضارة كلها تقريبا · والذين يفيدون من نتائج علم الأساطير ومن الظواهر الفولكلورية ، يصححون اخطاء شائعة تقسم المجتمعات البشرية الى جماعات ، تنزع الى التجريد ، واخرى الى التجسيم والتشخيص والتمثيل · والواقع ان مصدر التعبير الفنى فى جميع البيئات الثقافية الأولى واحد أو متشابة وان الناس

يحققون وجودهم بالكلمة والصورة والحركة والكتلة على السواء ·· والشعائر والطقوس ، مهما تفاوتت من حيث البساطة والتعقيد ، هى التى تطورت عنها الآداب والفنون الرسمية والشعبية جميعا ·

ولقد أوجدت الرموز الأسطورية المشاعر والأفكار ، التى تثيرها وتحيط بها فى البيئات الثقافية المختلفة · وانتخب الأنسان رموزه من الظواهر الكونية ومن الاحياء والجمادات حوله · وأصبح له معجم يستوعب تجسيمه وتشخيصه وتمثيله للظواهر والتغيرات ، ويستوعب هذا المعجم الاجرام والحيوانات والنباتات وسائر العناصر الطبيعية ، الى جانب الانسان وقد تختلف الدلالات والمعانى ، بل والمشاعر المصاحبة لها ، باختلاف الاقوام والعصور ، مثلها فى ذلك مثل الكلمات التى تدل عليها · والمتذوق للفنون التشكيلية ـ على سبيل المثال ـ لا يستحضر الدلالة المباشرة للعمل الفنى ، المصور أو المجسم لظواهر وكائنات منظورة ، ولكنه يحاول أن يستشف أبعادا أعمق فى دلالات رمزية ، محدثة أو قديمة ، لها مسحه أسطورية · ويحاول أيضا أن يستقبل المشاعر والاحاسيس ، التى تصاحب الوحدات التى يتألف منها الأثر الفنى التشكيلى ، فالزهره لا تدل على صورتها المرئية فحسب ، ولكنها تدل على ما ترمز اليه ، وما تقترن به من مواقف شعورية · والاسد والصقر والثعبان لا تحكى هذه الانواع من الكائنات الحية ، ولكنها تحكى فى المقام الأول دلالات ، لها أبعاد أسطورية وأجواء نفسية · وربما أشتقت الدلالات من الصفات المباشرة

للاحياء والكائنات، التىيصورها الفنالتشكيلى، فقد يدلالكلب على الامانة والذئب على الخيانة وقد تدل البقرة على الحياة الأقوام والعصور، لاسباب تتعلق بالبيئة المادية أو المضمون الثقافى لمجتمع، يعيش فى وطن محدد ومرحلة معينة من مراحل التطور الانســانى ، ولكن الممارســات والمعتقدات الثــانوية والتقاليد والتعابير الشعبية كثيرا ما تفسر ما وراء الدلالة القريبة والمعنى المباشر لهذا الرمز أو ذاك ، من الرموز الفنية المتوسلة بالخط واللون والكتلة ٠ والاسد يدل فى ذاته عنـد الانسان ، وفى صوره وتماثيله ، على صفات انتشرت عنه فى العالم بأسره ، ومن اليسير أن ترد الى أصولها الاسطورية ٠ ومن اليسير أيضا أن نجدها فى المعتقدات الشعبية ، وأيسر من هــذا أو ذاك أن نتتبعها فى الفنون التشبيكيلية الرســمية والشعبية ٠٠٠ « الاسد » ملك الوحوش عبارة عادية مألوفة ، لا تكاد نتوقف عندها ، ولكنها ثمرة تصور أسطورى قديم ، ربما أشتق وجوده من مظهر الاسد ومن بعض صفاته ، وارتبط فى الوقت نفسه بالملوك من بنى الانسان ، فأصبح يرادفهم ، ويرمز اليهم فى التاريخ القديم والوسيط ، بل والحديث أيضا ٠ ومــن الكلم المأثوران « الاســد » لا يهاجم أميــرا أصــيلا وكأنه مــن بنى عمومتــه ، أما اللبؤة فكانت رمزا للامومــة واقترنت بالآلهة الأم فى كثير من المعتقدات القديمة ، وكانت تصطحب فى مواكب ارتميس عند اليونان الاقدمين ٠ وظهرت السباع واللبؤات فى الايقونات الايجية القديمة وهى تصور اصدقاء الآلهة القديمة وحراسها ٠ ومما تجدر الاشارة اليه

فى تاريخ الفنون التشكيلية أن تماثيل السباع كانت تحرس أبواب مقابر المصريين القدماء وقصورهم وأبواب المعابد الاشورية • وكانت السباع أيضا ترمز للاله البابلى « نرجال » باعتباره شمس الصيف القائظ • وكانت الآلهة المصرية « سخت » تبدو فى هيئة كائن له رأس لبؤة ، كما اقترن الاسد بالالهين المصريين « رع وهورس » • وفى الهند يرمز الاسد للشجاعة والنبل والوفاء ، ويبشر بالحظ السعيد عند البوذيين، وله شأن كبير فى الطقوس الخاصة بعيد رأس السنة عند الصينيين • ويقوم الناس برقصة الاسد أمام البيوت فى عيد رأس السنة • اما فى أفريقيا فالاسد يعد من الحيوانات المألوفه التى يراها الناس كل يوم • وهو يعد عند الافريقيين تجسيدا لاسلافهم أو كائنا خارقا ، أو سيدا لابد من العمل على ارضائه •

وتعد الحمامة عند اكثر الشعوب رمزا للوداعة والسلام والأمن ، ويحرم صيدها فى بعض البيئات وبعض المواسم • وقد اقترنت بتواصل الناس ، عبر المكان وعبر الزمان ، عن طريق المراسلة الظاهرة والخفية • واذا صرفنا النظر عن الدلالات الثانوية لهذا الكائن الحى الوديع ، وعن تطويع أجناس من فصيلته للمراسلة ، فاننا لا نستطيع أن نتجاوز عن بعض الفنون المجسمة للحمامة ، ناهيك بأدوارها المختلفة فى الآداب ، الرسمية

والشعبية · وهنـــاك رقصة تعرف عند بعض القبائل الهندية فى أمريكا باســم « رقصــة الحمامة » وفيها يمثل أحــد الرجـال طــائر الصــقر ، الذى ينقض على الجمــع الممثـل للحمامات الوديعة ويختطف أحداها · وتشبه الكثير من الرقصات الجماعية الشعبية التى تعبر عن تفوق الرجال وأمتيازهم بالقوة وحقهم فى انتخاب شريكتهم ، عن طريق الاختطاف أو السبى ، وهو تقليد يجسم مرحلة سابقة من مراحل التطور الاجتماعى ·

ونحن فى هذا المقام لا نستطيع ان ننسى أقوال نظرية الميثولوجيا ، الشمسية أو القمرية ، والاحكام التى انتهى اليها رواد المدرسة الانثروبولوجية والمدرسة النفسية فى بحث ضروب الاساطير والسحر · ويكفينا ان نتذكر بمناسبة تحديد مدى العــلاقة بين الميثولوجيــا والفولكلور ، ان الطقــوس الاسطورية والممارسات السحرية لم تكن تقصد فقط الى تحقيق نفع أو دفع ضرر · وانما استهدفت غاية اخرى ، تتعلق بالطاقة الروحية للانســـان ، وليس من المعقول ان نحكم على اولئك الذين شادوا دعائم الحضارات فى العصور القديمة بأنهم كانوا يجنحــون الى تحقيق رغبــاتهم بمراســيم وطقــوس وممارسات لا علاقة لها بالتحقيق الارادى للعمل المنشود ··· ليس من المعقول ان نتصور ان رقصة الحرب او الصيد او الحصاد كانت تنوب عن الانسان البدائى أو القديم بالانتصار

على عدوه أو بالحصول على الغنيمة من صـيده ، او جمع الثمار الوفير من حقله • واذا كان ذلك الانسان قد اعتقد في قوى غيبية تعينه على تحقيق رغبته بصورة او اخرى ، فان ذلك لم يحل بيه وبين العمل الايجابى على تحقيق هذه الرغبة بملاقاة العدو والخروج للصيد والاقبال على جمع الثمار • واسلمت هذه المرحلة من مراحل الفكر والسلوك الى مرحلة اخرى اتضـحت فيها ، عند اولئك الذين اخـذوا باسـباب الحضارة ، العلاقة الوثيقة والمباشرة بين العلة والمعلول ، وايقنوا ان ارادة الانسان هى التى تحقق رغباته ، مستعينا فى ذلك بطاقته الروحية وعقيدته الدينية ، وما دمنا قد آثرنا منذ البداية ان نحتكم الى الوظيفة فى الكشف عن الاشكال والمضامين الثقافية ، فان الواجب يقتضينا ان نواجه المراسيم والطقوس والممارسـات التى اثمرت الفنون على اختـلاف وسـائلها وانواعها ، وحسـبنا ان نلاحظ الوظيفة النفسية للحركات والاشارات والكلمات والصور والتماثيل وما اليها من اثار فنية ، ارتبطت او اقتربت من الاساطير وضروب السحر •

ومن الواضح أن احـدى الغـايات الأساسـية ، التى تسـتهدفها الشـعائر والطقوس والممارسـات ، هى اثـارة الانفعال • فاستعمال خوار البقر فى افتـلاح الحقول عنـد الاستراليين الاصليين يقصد به استثارة انفعال معين فى ابناء المجتمع ، المعتقدين فى تأثيره ، أو فى غيرهم ممن يتفق وجودهم فى تلك الحقول • والقبيله التى تقوم برقص حربى قبل التوجه

لقتال جيرانها ، انما تستثير الحوافز على القتال ، أو تشد العزائم عليه • والمحاربون يرقصون لنقل الشعور بالعزه ، فالمراسيم المتعدده ، التى يقوم بها بعض الفلاحين فى بيئات الاستقرار الزراعى انما تشحذ عواطف هذه الجماعة نحو حيوانها ونباتها ومياهها •

ولكننا يجب أن نلاحظ أن الطقوس والممارسات لا تفرغ شحنة هذه الانفعالات ، لان الصالح العام للجماعة يتطلب الابقاء عليها وتقويتها والانتفاع بها ، وهى لذلك تتركز وتتبلور ، ثم تتحول الى عوامل مؤثره فى الحياة موجهه لها ، ونحن نرى أن هذه الاستثاره ، سواء وجهت الى القائمين بها أو الى غيرهم ، أو المقصود بها نافعا لهم أو ضارا بعدوهم ، فهى احدى الغايات الأساسية التى تستهدفها الطقوس والممارسات •

وكل من له فراسة نفسية يقدر أثر الانفعال فى نجاح اعمالنا او اخفاقها ، وفى علاج الامراض واتقائها • ومن ثم فاننا نستطيع ان نتوسع فى هذه النظرة ، ولا نجعلها مقصورة على المجتمعات البدائية والقديمة ، وان نسجل ، دون تحفظ كبير ، انها تنسحب على كثير من الجهود ، التى يقوم بها الناس فى حياتهم اليومية ، عندما يريدون حافزا نفسيا ، يدفعهم الى التوفيق فى جهد فردى أو جماعى •• مثال ذلك

اعتقاد المرء بأنه لابد من القيام بممارسات معينة ، قبل الاقدام على عمل له قيمته فى حياته ، وهو يشبه فى ذلك اقدام الانسان البدائى على اداء رقصة الحرب ، قبل منازلة اعدائه ، وان الفلاح فى بعض البيئات يقوم ببعض الطقوس ، قبل ان يحمل فأسه ، ويذهب الى الحقل أو الغابة ، ولكة الاقتناع باداء هذه الطقـوس لا يعنى أن العدو سـيهزم بمجرد الرقص ، أو ان الاستنبات الاحتطاب سيتم بتلك الممارسات وحدها · والمقصود من ضروب النشاط هذه ان الرغبة تحتاج لتحقيقها الى طاقة روحية تشحذ الهمة على الاقدام ، الى جانب العمل الايجابى المحقق للرغبة· وادى هذا ، التوسع فى النظر الى الثقافات البدائية ان يصحح الكثيرون من الانثروبولوجيين والنفسيين النتائج التى انتهى اليها الدارسون فى القرن الماضى وأوائل هذا القرن · ولم تعد الموازنة بين الفكر البدائى وبين المرحلة العقلية للطفولة تصلح وحدها لتفسير المعتقدات والطقوس التى تحققها عنـد الجمـاعات البدائيـة · بل عنـد بعض الطبقات فى ، المجتمعات المعاصره · ولم تعد كذلك الموازنة التى عقدها بعض الباحثيين بين بقايا الطقوس الأسطورية القديمة والممارسات السحرية وبين الأمراض العصبية والنفسـية تصلح أساسا لتفسـير تلك الجهود وانضم الى المتخصصين فى الدراسـات الإجتماعية والنفسية فريق ، وقف حياته على محاولة الكشف عن البواعث الحقيقة للانسان على التعبير الفنى · وظهرت تبعا لذلك فروع تكاد تستقل برأسها من العلوم الانسانية · وتعنى بالفنون على اختلاف وسائلها ·· ظهر علم النفس الفنى ·· وظهـر علم الاجتمـاع الفنى ·· وتكاملت الدراسـات

الانســانية ، فتهيأ لهــا مــن النفاذ الى الحقائق مــا لم يتهيأ للفلاســفة والرواد ، الذين مهدوا لتأصيل منــاهج العــلوم الانسانية ٠

وهنــاك ســؤال آخر ، لابد من محاولة الاجابة عليه هنا ايضا ، وهذا السؤال هو : اذا كانت العلاقة بين الميثولوجيا والفنون بصفة عامة قــد اتضحت ، فكيف نجد العــلاقة بين الفولكلور وبين التعابير الفنية ؟ ٠٠ ان الاجابة على هذا السؤال لن تؤكد العلاقة الحميمة بين الابداع الفنى من جهة ، وبين المأثور الشعبى من جهة أخرى فحسب ، ولكنها ستكشف عن الاساس الذى يستطيع به الباحث أن يميز بين فنون جميــلة أو رفيعة أو رسمية وبين فنــون شعبية ٠

وهنا نعود الى الوظيفة من جديد ، ذلك لانها هى التى تميط اللثام عن التحول عن الشكل الأسطورى البسيط أو المعقد الى مادة فولكلورية ٠ وقد سبق ان أوضحنا ان الاسطورة ، اذا غلبت على أمرها لسبب أو آخر ، فانهــا لا تنعدم وانمــا يصيبها التحوير ، استجابة لتغيرات ثقافيــة أو اجتماعيــة ، تتأثر مؤلفة وحدات جديدة ، تبدو فى شكل العقائد الثانوية والمراسم والاعراف الاجتماعية والتعابير الفنية والادبية ٠٠ فالفنون ، فى اصلها وفى الاجناس التى انشعبت اليها ، ذات

عروق أسطورية ، كما أنها فى الكثير من أنماطها وأشكالها ومضامينها تدخل في مجال الفولكلور ٠

ولا صعوبة هنـا فى ملاحظة الفرق بين مـا اصطلحت الحياة على تسميته بالفن الرفيع أو الرسمى ، وبين ما درجت على معرفته بالفن الشعبى ، وذلك لأن التعابير الشعبية انما تصدر عن الجماعة وللجماعة ٠ وليس معنى ذلك أن ابداعها دائما تسهم الجماعة فيه دفعة واحدة ، ولكن المعنى أنه تقليدى ويكاد يكون عفويا ، وانه لا يكاد يعرف الخصوصية الفردية ، كما ان الحاجز بين الابداع وبين التلقى يكاد يكون معدوما ٠ والابداع الفنى المحقق لشخصية الفرد لا يسـير فى خط موازٍ للتعابير المحققة لشخصية الجماعة ، فهما كثيرا مـا يلتقيان وكثيرا ما يسيران فيما يشـبه المجرى الواحـد ، وهما دائما يتبادلان الانواع ، والاشكال والمضامين والوحدات ٠ والشواهد على ذلك اكثر من ان تحصى فى تاريخ الفنون أو تراجم الفنانين ناهيك بما يلجأ اليه اصحاب القرائح المبدعة بهذه الوسيلة أو تلك من وسائل الفن ، الى التعابير الشعبية باعتبارها محصلة التقاليد الفنية من جهة ، ومورد الاستلهام العبقرى من جهة اخرى ٠

الفصل الرابع

الملحمة الشعبية

والاداب الشعبية ، باعتبارها حلقة كبيرة من حلقات الفولكلور ، لها وشائج متعددة بالاساطير ، ومن الصعب أن نفرق بين نوع من هذه الآداب ، يتسم بالاسترسال أو الطول ، ويتوسل بالشعر ، وبين نـوع آخر يميل الى الايجاز ، حتى ينحصر أو يكاد فى عبارة واحدة ويتوسل بالنثر • ذلك أن الشعبية ، وصلت بين الأنواع والاجناس ••• بين المضامين، والوظائف • ومن الممكن ان نجد مثلا شعبيا قد اقتطع من نشيد طويل أو ملحمة ضخمة • ومن اليسير كذلك أن نرد لغزا أو احجية الى سيرة بطل ، يستغرق انشادها الايام والليالى ، وأوضح من هذا وذاك أن نشـير الى ان البطل الأسطورى ، الذى يحكى أو كان يحكى ، فعال اله أو ابن اله أو شبه اله قد مهد الطريق لبطل انسانى ، مهما اضيفت اليه من خوارق • وهذه النقلة بين الكائن الاسطورى والبطل الملحمى الانسـانى تؤكد بدورها التواصل بين الميثولوجيا والفولكلور ، وتعين فى كثير من الأحيان على توضيح التطور ، من مرحلة فكرية الى مرحلة فكرية أخرى ، فى تاريخ الثقافة البشرية • وان تشخيص الصفات الانسانية على المعبودات القديمة هو الذى ساعد على أن يرفع الانسان البدائى أو القديم الاجداد والملوك الى مقام الآلهة ، أى أنه أسبغ على شخصيات انسانية ، كان لها وجود واقعى ، صفات خارقة ، تجعلهم يتجاوزون الطاقة الانسانية الى القدرات الخارقة • هناك اذن حلقة إتصال بين تشخيص الآلهة أو تأليه الناس فى هذه المرحلة أو تلك من مراحل الفكر،

مما يلقى الضوء على افساح المجال للبطل الملحمى الانسانى ، بعد ان غلبت الآلهة على جميع المقدرات والمصائر ··· ومن الطبيعى أن تكون له بعض الصفات الخارقة ، التى تتجاوز الممكن والمعقول ، ومن الطبيعى أن يستعين هـذا البطل ، أو أن تعينه الآلهة وغيرها من القوى الغيبية ، التى تتجاوز الطاقة المألوفه والطبيعية · ومن أجـل هـذا كله يعـد الأدب الملحمى فى منزلة بين منزلتين ·· بين عالم الميثولوجيا وبين عالم الفولكلور ، ويعد أيضا النوع الأهم والأكبر نسبيا ، بين أنواع الادب الشـعبى ،ومهما جهـد البـاحث فى تقسـيم المواد الفولكلورية الى فنون والى آداب · فانه يجد صعوبا كبيرة فى وضـع الخطوط الفاصلة بين الحلقات المختلفـة ، فالادب الشعبى ، الذى نحن بصدده الآن ، لا يستغنى عن وسائل التعبير الأخرى من فنون زمنية وتشكيلية ·

وقبل ان نسترسل فى الحديث عن المقومات الأساسيا للبطل الملحمى ، نرى لزاما علينا ان نسجل ما كان قد شاع فى أوساطنا العلمية عن افتقار الادب العربى الى الملحمة مرددين أقوال بعض الفلاسفة ، الذين تأثروا بالفكرات العنصريا التى راجت فى القرن الماضى ، وعلى رأس هؤلاء الفيلسوف الفرنسى ارنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) Ernest Renan الذى ذهب الى ان العقلية العربية تنزع بفطرتها الى التجريد وتعجز عن التجسيم والتشخيص والتمثيل ، وأن الادب العربى، نتيجة لهذه النظرة ، لم يعرف الأسطورة ، ولم يبدع القصة والدراما · واذا وجد شىء منها فى بيئة أوجيل فهى دخيلة أو مقتبسه · ولم يعد هذا القول فى حاجة الى تفنيد ، لأن

الدراسات الموضوعية قد اثبتت خطأه وتأثره ، عن غير وعى ، بالعنصرية التى حكمت على الجماعات الانسانية بالتفاوت ، تبعا للأرومة أو العنصر • والمجتمعات العربية ، كغيرها من الجماعات الانسـانية ، مرت بالفكر الأسطورى بدعامتيـه ، اللتين استهدفتا التفسير وتقوية الروح المعنوى • وما اكثر الروايـات والنصـــوص التى حفظت المعتقـدات والطقـوس الجاهلية (٢٤) •

والاعتماد على الدراسة الموضوعيـة وحدها ، وطرح لعواطف جانبا ، قد اثبت وجود الملحمة العربية ، وهى وان أخرت في الظهور عـن ملاحم شـعوب أخـرى فى الشرقين لاوسط والادنى فذلك لاسباب تتصل بالتطور الثقافى • ولم كن العرب بدعا بين الشعوب الانسانية ، فقد مروا بطور نزع لافكر فيه الى التجسيم والتشخيص وضروب من الطقوس لمتوسلة بالتمثيل • وبرز البطل الملحمى فى اكثر من بيئة من يئات العرب ، وفى اكثر من مرحلة من مراحل تاريخهم • ومن لفيد ان نميز منذ اللحظة الاولى بين ضربين من الملاحم ، كما -قرر مؤرخو الاداب ونقادها • فهناك الملحمة الشعبية Folk Epic التى ينسب تأليفها الى الجماعة اكثر مما ينسب الى رد بعينه • وهناك الملحمةالفنية Art Epic أو الادبية، وهى لتى تنسـب الى مؤلف معروف • والضرب الأخيـر يحاكى لاول ، وتبدو فيه ملامح شخصية الاديب الذى ابدعها • أما

---

(٢٤) محمود سليم الحوت : فى طريق الميثولوجيا عند العرب، تعجز عن التجسيم والتشخيص والتمثيل ، وأن الادب العربى أنظر المقدمة ، ص ١٤ ـ ١٧١ •

الضرب الأول فتقليدى ، ويقتطع من التاريخ ، وان جنح فى عالم الخيال • والشخصية التى اشتهرت بتأليف احدى ملاحمه غامضة ، لا يستطيع تاريخ الادب أو الحضارة أن يميز لها واقعا محددا •

ودارسو الآدب المقارن يمثلون للضرب الاول بأشهر ملحمة وهى الياذة هوميروس ، ويستشهدون على الضرب الثانى بانيادة فرجيل •

وأيا كانت التعريفات التى ينتهى اليها دارسو الادب ، فان هذا الجنس الادبى كان قد اختفى من عالم الابداع فى اكثر بلاد العالم ولكنه مستمر عند الشعوب ، التى يقوى فيها الشعور الوطنى أو القومى ، ويبعث استجابة لما بدأت تحسه الجماعات المتحضرة من وجوب التحام الادب بالجماهير ، وهو الالتحام الذى يعتصم بتصور جديد للبطل الملحمى ، والذى يتوسع فى تصويره، ويقرن القصيدة القصيصية الطويلة ببعض مقومات الآدب الدرامي ، من حوار وحركة ونشيد جمعى •

ولقد تصور المتخصصون فى الاداب المقارنة ان البطل الملحمى ربما كان ، من الناحيتين التاريخية والفنية ، هو المعبر من الشخصية الاسطورية الى الشخصية المحورية فى الدراما

بمفهومها الكامل · والراجح انهم اعتمدوا فى هذا التصور على السياق المتتابع فى شيء من الضبط لمراحل الآدب اليونانى القديم ، يضاف الى ذلك ما لا حظوه من اعتماد شعراء الملاحم والدراما على اساطير ، وجدت قبل عصورهم· وقلما يوازنون بين منهج الاسطورة فى التشخيص ومنهج الملحمة ، ذلك لانهم انصرفوا الى عقد الموازنة بين البطل الملحمى والبطل الدرامى بصفة عامة ، والتراجيدى بصفة خاصة ، أما نحن فنستطيع ان نقيم الموازنة بين الكائن الرئيسى فى الوقائع والاحداث فى كل من الاسطورة والملحمة ··· ان هذا الكائن فى عالم الأساطير هو احد الآلهة ، أو أشباههم · اما فى الملحمة فهو كائن انسانى ، رفعته الجماعة الى مضاف الآلهة ، أو الى مستوى يقرب من مستواهم ·· ان البطل الأسطورى فى وقائعة ومجالات صراعه هو القدر ، وفى النزاع يشخص قوه قدرية تنازع قوة تماثلها ، ولكن البطل الملحمى أنسان يعاونه القدر ، وقد كتب النصر له ، والوقائع الكثيرة التى يخوضها ، مهما كان فيها من انتصارات وهزائم ، ستنتهى آخر الأمر الى فوز حاسم ، ومع ذلك فالسياق يستمر ، حتى ينتهى البطل بالخاتمة التى تواجهها الكائنات الحية جميعا · وعلى هذا الأساس يكون البطل الملحمى تطورا للبطل الأسطورى ، ولكنه يعيش فى المجتمعات التى نجم منها مع آلهة الأساطير ·· وهذه الآلهة تستوعبها الملاحم ، وتعيش فى أساطير مستقله فى الوقت نفسه فى البيئة الثقافية ، التى ظهرت فيها الملحمة ، أو فى بيئات أخرى مرتبطة بها · واذا كان الشعب اليونانى القديم قد سار فى ادبه على مراحل ممتابعة ،

اعتبرها مؤرخو الادب قاعدة ذهبية يمكن تطبيقها على آداب الشعوب الاخرى ، فان ذلك لا يدل على المراحل التالية لمرحلة الأسطورة قد نسخت ما قبلها ، ولكنه يدل على غلبة أتجاه أو جنس ادبى ، ونسب العصر اليه • وظلت المجتمعات اليونانية تحقق وجودها بشعائر وطقوس ومراسيم وعادات وتقاليد وآداب وفنون ، الى جانب الأتجاهات والاجناس الغالبية وبخاصة فى الطبقات العليا ، وفى مراكز الحضارة اليونانية وحولها •

والموازنة بين البطل الملحمي من جانب ، والبطل الدرامى من جانب آخر أيسر مؤونة من محاولة الكشف عن مقومات البطل الأسطورى ، بوضعه فى موقف ، يواجه به الشخصيات الملحمية والدرامية ، مع التسليم بأن كل حديث يستشهد بالملحمة اليونانية ، وبخاصة ملحمتى هوميروس الالياذة والاوديسا ، انما يعنى ابداعا شعبيا ، لأن هذا النموذج اليونانى الفذ يعد مثالا على الملحمة الشعبية • وعندما يقارن ارسطو بين الملحمة والتراجيديا فهو يعتمد على رائعتى هوميروس • ولقد تتبع أحد ادبائنا المعاصرين مقومات البطل فى الاساطير والادب ، والتفت الى هذه الحقيقة وقرر : « ولا شك ان وجوه الشبه بين الملحمة والتراجيديا أوضح بكثير من وجوه الاختلاف فأرسطو ، وان كان جل حديثه عن التراجيديا يمزج بينها وبين الملحمة فى الاستشهاد حين يتحدث عن الوحدة الفنية ، وعن « التعرف » وعن « انقلاب الاحوال » ، كما يصرح بأن الملحمة تشبه التراجيديا فى انواعها ، « بسيطة ومعقدة وخلقية وانفعالية » ، كما تشبهها فى أهم عناصرها ، وهى العقده

(أو الخرافه) والخلق (أو الشخصية) والفكر والعباره والخـلق تنطبق أولا وبالذات على شخصية البطل ، ولكن أرسـطو يلاحظ ، بجانب الفروق الشكليـة بين التراجيـديا والملحمة ، فرقا هاما فى المضمون • وهو ان مجال العجائب أو الخوارق ، أوسع فى الملحمة منه فى التراجيديا • وهذا الفرق هو الذى يجب أن نتتبعه لنكتشف العنصر غير التراجيدى (أى غير الذاتى) فى البطل الملحمى • وهو يتضح عندما نتأمل شخصيات الآلهة والأبطال والعلاقة بينهما فى التراجيديا والملاحم اليونانية •

فالتراجيديات اليونانية تظهر الآلهـة كما تظهر الأبطـال ، والملاحم اليونانية تقص عن الابطـال ، ولكن الآلهـة اليونانيين • الذين يظهـرون على المسـرح (كبروميتيوس) فى « بروميثيوس مغلولا » لايسكيلوس ، وابـولو فى الستيس « ليوريبيديس » لا يختلفون فى شىء عن البشر ، ولا تنسب لهم اعمال خارقة ، لأن كل الأعمال التى لا يقبلها العقل يجب أن تكون خـارج المسرحيـة نفسـها ، كمـا يقول أرسـطو • فلا يهبط الاله مـن الآلهة ليحـل المشكلات • أما فى الالياذة • مثـلا ، فالآلهة يحولون السهام ، عن طريقها ويلفون ساحة المعركة بالسحب المظلمة ، بل يحملون السلاح

هم انفسهم وينزلون الى الحرب لينصروا فريقا
على فريق (٢٥) ٠

ومن المعايير التى اعتمد عليها المعنيون بالاداب المقارنة للبحث عن الذات والموضوع فى الاشكال الادبية ، والكشف عن مدى ارتباطهما او افتراقهما فى تلك الاشكال ، ولقد طبقوا ذلك على الملحمة والدراما ٠ وانتهوا او كادوا الى ان الاولى يغلب الموضوع عليها ، والثانية تدور وقائعها واحداثها جميعا حول ذات البطل ، بيد اننا نعطى انفسنا الحق فى تعديل هذا المعيار تعديلا يضبطه ويجعله مشتقا من طبيعة الخلق الفنى ، اذا الواقع ان (الموضوعية) تنسحب على الدراما والملحمة على السواء، بل انها لتنسحب على الاشكال الادبية القصصية جميعا ٠ (والذاتية) ، باعتبارها الشخصية المحورية فى هذه الاشكال ٠ هى التى تستحدث التغير فى الوقائع والاحداث والعلاقات ٠ والفرق الاساسى فى هذه الناحية بين الملحمة ، وبخاصة الشعبية ، وبين الدراما هو ان الشخصية فى الاولى مثال ونموذج ، صورته مخيلة الجماعة ، التى انشأته وتذوقته فى وقت واحد ٠ وسيان كانت الشخصيات مقتطعة من الواقع التاريخى أو من صنع الخيال فان ذلك لا يخرجها عن طاقة التصور الجمعى ٠ والدراما ، التى تتحقق نسبتها الى شاعر او اديب ، تعرض لشخصيات لها خصوصية ، تنفرد بها دون سائر الناس ، وقد تقتبس من ابطال الاساطير والملاحم ، ولكن الذاتية فيها

---

٢٥) د٠ شكرى محمد عياد : البطل فى الادب والاساطير ، القاهرة سنة ١٩٥٩ ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ٠

تكسبها الفردية ، وربما اشتهرت وتحولت ، بدورها الى مثال
او نموذج ، ولكنهـا تظل مع ذلك تحتفظ بقدر من مقوماتها
الخاصة • ومن اليسير ان نتصور هذا التعديل لمعيار الذات
والموضوع اذا نحن ادخلنا فى حسابنا ارتباط الاثر الادبى
بجماهير المتذوقين له ، ومنهج ارتباطهم به ، فالملحمة الشعبية
وسيلتها الانشاد ، وهى لذلك تثير الخيال فى نفوس المستمعين
وعالمها اقرب الى عالم الاحلام منه الى العالم الواقعى المنظور
اما الدراما فهى تعتمد على حوار مشخص وحركة منظورة ،
وهى وان امتازت على الملحمة الشعبية بمساهمة النظاره فى
بعض الاحيان ، مساهمة جزئية فى ترديد الاناشيد ، الا ان
الملحمة الشعبية ، تعد فى المجتمعات التى ابدعتها وعاشت
على تذوقها ، اقرب ما تكون الى الاسفار المقدسة ، او الى ما
اصطلح بعض الدارسين على تسميته بالتراجم التى لها جلالها
او الثيوبيوجرافيا Theobiography (٢٦) •

ولقد حاول كثير من الباحثين ان يتتبعوا دورة الحياة
للبطل الرئيسى او الابطال الرئيسيين فى الملاحم الشعبية ؛
وفطنوا الى قدر من التشابه فى المعالم الرئيسية لدورة الحياة
عند هؤلاء الابطـال فى كثير من البيئـات ، وعند كثير من
الشعوب • والتقت هذه الملاحظات بما انتهى اليه المعنيون
بالحكاية الشعبية بصفة عامة • واثمرت الجهود تصنيفات
متعـددة للابداع الشـعبى • واذا تجاوزنا عن التفاصـيل

26. An introduction to Mythology, op. cit., 63.

والجزئيات فاننا نسجل ان البطل الملحمي ، او بعبارة ادق البطل الشعبى ، يولد ويتعرض للاخطار فى طفولته ، ولكنه ينجو ويشب عن الطوق ، ويتفوق على الاخرين فى الطعان ويتحصن ضد الاصابات القاتلة • ويحارب التنين او ما يماثله من وحش خرافي ويطلب اليه ان يأتي بالمستحيل ، وينفى عن موطنه ويصارع اباه ، ويحمى مجتمعه ، ويفوز دون أن نعيره من نظرائه باجمل فتاة في محيطه وعالمه وتتحقق بذلك النبوءة التى جعلته المخلص لنفسه ولقومه ، ثم يعبر الى العالم الاخر بعد كفاح عنيف ، ايا كانت المدة التى عاشها من حيث القصر أو الطول • وهذه الدورة تنطبق على اكثر ابطال الملاحم الشعبية أو السير الشعبية فى التراث الادبى العربى •

والادب الشعبى ، باعتباره حلقة كبيرة من حلقات الفولكلور ، يفيد من الدراسات المتخصصة فى الميثولوجيا ولا يستطيع ان يستغنى عن هذه الدراسات بحال من الاحوال • ومن دلائل التوفيق ان الاتجاهات الاخيرة فى الدراسات الادبية فى العالم العربى قد فطنت الى طبيعة التراث الثقافى، وادخلت فى حسابها العناصر الميثولوجية فى الثقافة العربية واحتفلت من اجل ذلك بالملاحم الشعبية اول الامر • ثم احتفلت بسائر اشكال الادب الشعبى بعد ذلك واستخلصت من تلك الدراسات حقيقتين كبيرتين ، **الاولى** ان للشعب العربى ملاحم شعبية ، تعد من الروائع العالمية وان الكتب الجامعة لروائع الملاحم العالمية تنتخب ملحمة ، رأى المصنفون لتلك الكتب(٢٧)

---

27. H.A. Gurrber, The Book og the Epic, London 1930, PP. 499.

انها تمثل الشعب العربى ، وانها لا تقل بحال من الاحوال من حيث القيمة والتأثير عن الملاحم ، التى تجاوزت حدود الاوطان التى نجمت فيها ، وهذه الملحمة هى سيرة عنترة ابن شداد العبسى · اما الحقيقة الثانية التى اكدها المستشرقون ، فهى ان الفولكلور العربى بعامة والادب الشعبى بخاصة هو الذى نفذ من حدود الوطن العربى الكبير واثر فى اتجاهات ادبية فى بيئات اخرى وامم اخرى ، وان من هذه الروائع التى استلهمتها الشعوب الاوروبية الحكايات الشعبية والملاحم الشعبية العربية (٢٨) ·

وهذه العناصر التى تمازج او تخالط بين الميثولوجيا والفولكلور هى التى دعمت الاواصر بين المجتمعات الانسانية ولقد كانت الملحمة الشعبية « سيرة عنترة بن شداد » وسيلة تعارف بين الشعوب ، تتضاءل الى جانبها المسائل الدبلوماسية والاقتصادية · ولقد اصبحت موضوعا رئيسيا من موضوعات الادب المقارن فى اوروبا ابان القرن التاسع عشر · ونحن نلمس منذ البداية تشابها أو تطابقا بين بعض حلقات هذه السيرة الشعبية ، وبين ملحمة « السيد » الاسبانية واغنية رولان الفرنسية · ولا نستطيع فى هذا المقام ان نغفل تأثير هذه السيرة فى الاوساط الادبية الاوروبية ،

---

٢٨) تراث الاسلام ، مادة الادب بقلم هـ·ا·ر·جب
H. A. R. Gibb.
ترجمة عبد اللطيف محمود حمزة ، ص ١٤٩ وما بعدها القاهرة سنة ١٩٣٦ ·

فقد اعجب بها الناقد الادبى العظيم هيبوليت تين ، ووضعها بين الروائع الملحمية العالمية ، مثل سيجفريد ورولان والسيد ورستم واوديسيوس واخيل » • وكان الشاعر الفرنسى لامارتين تأخذه النشوة ، ويستبد به الطرب ، كلما ذكر هذا البطل العربى عنترة او اطلع عليه جانب من ملحمته الرائعة •

ولقد شغل الباحثون انفسهم ، ولا يزالون بمحاولات الحكم على هذه السيرة الشعبية ، من ناحية البناء الفنى والتاريخ والاسلوب ، وقلما عنوا بالباعث الاصيل الذى اثمرها ، وهو ما يصطلح الفولكلوريون على تسميته بالوظيفة • وهذه الملحمة ، كغيرها من نصوص الادب الشعبى ، تكاملت فى بيئات عربية مختلفة ، ولم تبلغ غايتها من الكمال ، الا بعد ان استنفدت الاجيال والقرون فى النماء والتطور والتراكم • ولهذه الحقيقة دلالتها الكبيرة ، وهى ان الوجدان الشعبى تشبث بالمثال الذى انتخبه ، ورآه ملائما لما يريد أن يعبر عنه ، فلم يحتفظ به حقبة تقصر أو تطول، ولم يجعله موضوع غنائه فى بيئة واحدة مهما كانت ، وانما ظل يعبر بوساطته عن هذا الوجدان بأبعاده التاريخية ، وما تصوره من امجاده ، وبما اراد ان يرسب من معارفه ، وبما اعتصم به من قيم يفرض على افراده

جميعا التصعيد اليها فى السمت ، وفى الفكر وفى التعبير وفى السلوك .

ولا يزال الدارسون يعكفون على النظر فى مخطوطات هذه السيرة المبعثرة بين دور الكتب فى القاهرة وصنعاء واسطنبول وباريس ولندن وبرلين وغيرها . وقد تنتهى دراساتهم الى نتائج ذوات قيمة فى ترجيح فترة زمنية أو فترات زمنية ، استغرقتها هذه الملحمة الضخمة فى التطور ثم التكامل فالثبات على صورتها الاخيرة ، التى يعرفها العالم الان . بيد ان هذه النتائج لن تخرج على الترجيح الى اليقين، ذلك لان مثل هذا النص الشعبى ، فى تأليفه وتذوقه جميعا ، لا يمكن ان يخضع للاصول والقواعد ، التى تخضع لها نصوص التراث الرسمى أو الفصيح المعتبر . ولقد فات بعض الباحثين ان النص الشعبى ، وان قام فى اصله على الحفظ والرواية الشفوية والاداء المستقل عن القراء ، فانه يتوسل بالتدوين فى بعض البيئات والعصور . وهذا التوسل لا يخرجه عن شعبيته بحال من الاحوال . والمتخصصون فى الفنون والاداب الشعبية يقررون هذه الحقيقة ، ويسجلون بعض الشواهد ، التى توسلت بالتدوين ، ويذهبون الى ان الشواهد الشعبية المدونة متأخرة عن مرحلة الابداع وما تلاها ويلاحظون ان بعض المحترفين يلجأون الى التدوين ، خوفا من ضعف الذاكرة ، ولكنهم فى الوقت نفسه كثيرا ما يستعملون رموزا خاصة بهم ، يثبتونها فى تضاعيف النص حتى تظل النصوص مصونة الا على اصحاب الحرفة ، كما انهم يسقطون

فى احيان اخرى مشاهد كاملة ، ويكتفون بمجرد الاشــارة اليها ، لان هذه المشاهد من الذيوع الشهرة ، بحيث لا تند عن الذاكرة ، وهى مشاهد كثيرا ما ينقلونها من سيرة الى سيرة • ومن اجل ذلك كان من الضرورى ان يعتمد الباحث على المنهج الميدانى ، وان يلاحظ الاداء الحى المتكامل ، وان يعمد الى تحليله من داخله ، قبل ان ينظر فى المخطوطات •

وما دامت هذه الملحمة الشعبية تعد مادة فولكورية ، فمن الطبيعى ان يطبق الباحث عليها منهج الدراسة ، الذى ينطبق على الحلقات الشـفوية من التراث الشعبى • ولقد حرص الاخذون بتحليل الاساليب على البحث عن موطن الاثر الادبي وعصره ، واقتنعوا اخر الامر بان هذه المهمة دليلا قاطعا على بيئة التاليف وعصره ، كما انها لا تكشف عن شخصية المؤلف او المؤلفين • وسيرة عنترة وامثالها تخضع للقوانين التى تحكم المأثرات الشــعبية ، فهى تتطور ابدا وتتعرض لتغيرات شــتى ، وتســير بالاجمــال فى طريقين متعاكسين : اولهما يصعد من سفح الهرم الإجتماعى الى ما فوقه من الطبقات الاجتماعية حتى يصل الى القمة ، وثانيهما يهبط من قمة الهرم الاجتماعى الى سفحه •

ولا يتعارض هذا المســار مع شــعبية تلك المـأثورات ، وكثيرا ، ما تأخذ القرية فى الريف من البداوة فى الصحراء، وكثيرا ما تعطى المدينة • وفى مقابل هذا تتقدل الديئة الريفية ببعض ما تصدره المدينة من القيم والمثل ومن التعابير الادبية والفنية • وسواء اكانت سيرة عنترة قد انحدرت من القمة الى

السفح ، وبدأت جزلة اللفظ معربة التركيب انيقة الصياغة ، أو ارتقت من القاعدة ، فصقلت الفاظها واحكمت عباراتها ، فانها .فى الحالين ارتبطت .بالشعب ••• هو الذى أنتخبها ونماها ، او اعان على تنميتها ، وهو الذى جعلها جزءا لا يتجزأ من كيانه المعنوى ، يعبر بها عن ذاتيته العامة ، وموقفه الخاص فى مختلف البيئات وعلى مر القرون •

ويجمع عنترة كل مقومات البطل الملحمى • كما عرفها المتخصصون فى الاداب الشعبية والمقارنة • ويساير دورة الحياة بمعالمها الرئيسية ، كما سجلها الدارسون منذ القرن الماضى الى الآن ، فهو ابن احد امراء القبيله ووالدته وان كانت أمة حبشية ، الا أنها فى حقيقة الامر من بنات النجاشى وأنكر الأب الطفل ، وسلكه مع العبيد ، ومع ذلك عمل ، تحقيقا لمارسمه القدر ، على التوازن بين واقعة وبين الآمال المعقودة على حياته • وكان من الضرورى ان يتفوق منذ البداية على الاقران • واتخذت شخصيته مسحة أسطورية ، تجاوزت به المعقول والممكن فى أكثر الأحيان • ووكان وهو رضيع يمزق الاقمطه ، ويسقط الخيمة ، وهو فى الثانية من عمره ، ويقتل الكلب ، وهو ابن أربع والذئب وهو ابن تسع ، والأسد وهو فتى ، حتى اذا استكمل مؤهلات الفروسية نهض بتبعاتها ، كخير ما ينهض الفارس المثالى • وتجاوز الدفاع عن القبيلة الى توحيد الجزيرة العربية فنازل الاقران حتى اعترفوا به مقدما عليهم • وصرع الاعداء الذين يكافئونه عزيمة وجلدا واقداما • وهو فى هذه المعارك والثارات يحقق فضائل

الفروسية ، ويوحد العرب ويستعلى على الصغائر ، ويكتفى من بعض أعدائه بالاقرار له بالمغب · ويصدر فى سلوكه عن حب عذرى لابنة عمه عبلة ، ويجعل من حبه هدفا ، يمتزج بتحقيق الفضائل والمثل ··· من أجلها ومن أجل المجتمع باسره حقق ذاته ، وباسمها كان القسم حتي فى حومة الوغى وقعقعة السلاح وسقوط الابطال ·

وينطبق على الاطــار الذى يتحرك فيــه البطل الملحمى عنترة ما ادركناه من علاقة حميمه بين الميثولوجيا والفولكلور، فقد اكتنفت هذه السيرة الشعبية ــ من غير شــك ــ عروق أسطورية ·· لا تثمرها المبالغة فى الخيال فحسب وانما تجيئها من شــوائب قديمــة ، ومن تصورات شعبية ، وهذه العروق الأسطورية تنم عنها المبالغة فى القدرة والطاقة عند الابطال ، وبخاصة عند عنتره ، وهى مبالغــة تتجاوز حــدود الممكن والمعقول ، وتكاد تسلكها فى باب الخوارق ، ذلك لانها مجموعة من الأفكار والتخيلات ، ومن التفسيرات غير المعقولة لبعض الاعمال والظواهر · وهناك شواهد كثيرة عن طول الحياة ، بحيث يعمر بعض الناس القرون ذوات العدد ، وعن الفال والطيرة والحسد ، وعن أرض العفاريت وكهف الساحرات ، اللاتى يأتين فيه بالعجب العجاب··· وليس من شك فى ان تلك الرواسب والعنــاصر الاسطورية ســمة من ســمات الادب الشعبى ، وهى تضاف الى ما فى ســيره عنتره وغيرها من القدرة على قتل الأسود ، ومن النسوة المسترجلات ، ومن التشــويق بتتابع الاحداث ، لا باخفاء النتيجة التى يفصح

عنها التنبؤ ، بواساطة النجوم أو الرمال أو الاحلام (٢٩)٠

والبطل الملحمي عنترة اتخذ الحدود ، التي يلتزمها التعبير الشعبي ، حتى في الافصاح عن عقدة « أوديب » فهو يختلف مع أبيه اختلافا يبلغ حد الصراع ٠ والأب مهما اختصم أبنه ، فانه لا يستطيع أن يتحول الى وحش كما هو المألوف في الأساطير اليونانية القديمة ، كما أن البطل الشعبي يكتفي من الصراع بتحقيق التوازن بينه وبين بيئته ، وحسبه ان يرقى الى مقام الاحرار وان يعترف به أبوه ٠ ونحن نجد التعبير عن هذه العقدة نفسها في ملحمة شعبية عربية أخرى هي سيرة بني هلال ، ولعلها في هذه السيرة الأخيرة أوضح منها في الاولى لان البطل ابازيد ينشا مخالفا في السحنة لأبيه وأمه ، ويعزل عن المجتمع ويلفظ ويكاد يحكم عليه وعلى أمه بالقتل ٠ ولكنه كغيره من أبطال الملاحم ينجو ويعيش في بيئة أخرى ، ويكتب عليه أن ينازل أباه ، ولكن الشعب يرفض أن يقتل أحدهما الآخر ويجعل من النزال اختبارا للشرعية ، ويرقى أبوزيد ، حتى يصبح بطل الابطال في الملحمة الشعبية ٠ وقد يكون من التزيد أن الكرر ما سبق أن ذكرته في دراسات سابقة عن دلالة عقدة اللون على الحافز القومي ، الذي دفع الشعب الى تحقيقه بالتعبير الملحمي ٠ وهذا الحافز هو الصراع التاريخي بين الشعب العربي وبين الصليبيين ٠ وكان من

---

٢٩) تراث الانسانية ، المجلد الرابع ، العدد ٦ ، سيرة عنترة بقلم الدكتور عبد الحميد يونس ، ص ١٢٤ وما بعدها ٠

الطبيعى أن يميز العرب من اعدائهم باللون الأسمر • والمبالغة فى هذا اللون من خصائص التعابير الشعبية (٣٠) •

والدراسات الفولكلورية ينطبق عليها ما ينطبق على سائر العلوم الانسانية فى تأثرها، من الناحية المنهجية بالمراحل التى سار فيها الاهتمام بما يصدر عن الاحاد العاديين وعن الجماهير والشعوب ، أو بتعبير آخر ما يصدر عن الفرد العادى عن وعى أو غير وعى ، وما يصدر عن العقل الجمعى • وهذه المراحل تصور مختلف الحوافز ، التى دفعت المتخصصين الى الاهتمام بالتراث الشعبى والابداع الشعبى والفولكلور • ولقد شهد العصر الحديث حوادث مختلفة ، دفعت الى هذا الاهتمام ، على رأسها الحافز القومى الذى لونته العنصرية عند بعض الأوساط الفلسفية والعلمية ، والحافز الديمقراطى الليبرالى الذى احتفل بالانسان العادى ، ثم الفلسفات التاريخية التى تأثرت بنظرية الحتم • بيد أن هذه الحوافز كلها قد أفادت النظرة العلمية الموضوعية ، لانها مهما جنحت فى النتائج

---

٣٠) د• عبد الحميد يونس : الهلالية فى التاريخ والادب الشعبى ـ القاهرة سنة ١٩٦٨ ، ص ١١١ وما بعدها •

والأحكام متأثرة بأفكارها الخاصة أو المسبقة ، فقد حرصت على جمع المادة الفولكلورية ووصفتها ، وبذلت جهودا مشكورة فى تصنيفها وموازنة بعضها الى بعض وتتبع عناصرها من حيث التطابق أو التشابه أو الاختلاف ٠
والفولكلور ، باعتباره علما قائما برأسه فى هذه الحقبة الاخيرة ، قد أضاف الى المواد التى عنيت بجمعها ودراستها العلوم الانسانية الأخرى . كما أضاف نظرة أدق الى الثقافة الانسانية ٠ وليس من شك فى أنه وأن تأثر فى مرحلة من مراحله بمناهج الميثولوجيا والاديان المقارنة والانثروبولوجيا ، بخاصة الانثروبولوجيا الاجتماعية ، وعلم النفس ، الى جانب علوم اللغة والتاريخ والجغرافيا ، الا انه الآن يستطيع أن يقف على نفس المستوى مع العلوم الأنسانية ، التى لها مكانها من تاريخ الفكر ومن نشاطه المتجدد على الدوام ٠

الفصل الخامس

الفولكلور.. لماذا ؟

هذا عن علم الفولكلور · أما المواد والعناصر التى تؤلف موضوع هـذا العلم فلايزال الحكم عليها خاضعا لنظريات العلماء ومكانهم من تطور العلم والزوايا التى تحدد انظارهم· ولاتـزال المؤتمرات العلميـة تعقـد فى الغرب وفى الشرق ، لمحاولة تبادل الخبرات والنتائج ومحاولة الأتفاق على مناهج الدراسة · ومع ذلك فنحن من جانبنا نتفق مع الدارسين ، الذين يركزون الانتباه على الجانب الوظيفى للمادة الفولكلورية ·

ومنذ عام ١٩٢٦ ، أى عندما نشر العـالم مالينوفسكى مقـاله الرائد عن وظيفة الأسـطورة ، والعلمـاء مشـغولون بمحاولة الكشف عن الجانب الوظيفى للعناصر الثقافيـة فى حياة الانسان · ولقد أكد هذا العالم أن الاسطورة كانت بالنسـبة لمعتنقيها بمثـابة دسـتور اعتقـادى ، فهى تفسر الحاضر ، وتعمل على تأمين المستقبل · ورأى الأخذون بمذهبه فى العناية بالوظيفة أن يطبقوه على العناصر الفولكلورية ، وبذلك صح عندهم أن هنـاك علاقة حميمة بين الميثولوجيـا والفولكلور · وذهبوا الى أن الأمثال الشعبية قد تؤلف دستورا اعتقاديا ، وقد تكون فى الوقت نفسه نماذج لابد من احتذائها فى السلوك · ولابد من ان نلاحظ هنا أن الامثال الشعبية ليست لها القداسةالتى للاساطير، كما أنها معقوةتأثيرها فىالسلوك الانسـانى تقوم بوظيفة التبرير للعمـل والموقف ، كمـا تقوم بوظيفة التقنين للرغبات والأعمال · وقد تكون هناك عناصر

فولكلورية أخرى ، تقوم بوظائف لها قدر من الشبه بوظيفة الأسطورة • ومن الأهمية بمكان أن نسجل أن المادة الفولكلورية كثيرا ما تكون لها وظائف متعددة فى البيئة الثقافية الواحدة • وهذا واضح فى الأغنية الشعبية بصفة خاصة ، فاغنية العمل كثيرا ما تستخدم فى السمر والعاب الأطفال ، كما أن أغانى التسلية والترفيه كثيرا ما تصاحب العمال اثناء عكوفهم على عمل شاق • وهنا يجد الباحث أن الشكل واحد والوظيفة مختلفة ـ ولا يقدر المتخصص في الفولكلور أن يستخلص الحكم على مادته من الشكل وحده ، وهذه أضافة كبيرة لاولئك الذين تخصصوا فى الآداب والفنون الشعبية •

ويكاد يكون المستحيل أن نحدد جميع الوظائف التى يقوم بها الفولكلور فى البيئات الثقافية المتعددة • ولقد تصور البعض أن الفولكلور أنما يقوم بوظيفة التسلية والترفيه للاحاد والجماعات • واذا كانت الأسطورة تشحذ مشاعر معينة فى نفوس الذين يعتنقونها، وتدفع بها فى مسارب النفوس ، وذلك لكى توجههم الى القيام بعمل محدد ، يتطلبه الصالح العام فان الفولكلور فى تصور هؤلاء يلتقى بالاسطورة فى منتصف الطريق • لانه بدلا من توجيه المشاعر الى سلوك عام أو موحد ، فأنه يفرغ شحنتها بالمحاكاه أو التمثيل • ولقد اثبتت الدراسات الحديثة أن الفولكلور ، بل

أن الحلقات الفكاهية من الفولكلور لا تقصد الى مجرد التخييل وأثارة الضحك ، ولكنها تستهدف مواقف جاده فى حياة الأنسان ، وان اتخذت لها طريقا غير مباشر . وهذا ينطبق على العروض التخييلية والحكايات البعيدة عن الواقع ، والتى تعتصم بعوالم سحرية أو خرافية . ولقد اتضح لكاتب هذه السطور ، عندما تعرض لاداء الملاحم الشعبية فى بيئات ثقافية مختلفة ، أن المنشد المحترف ، عندما يستهدف تأكيد مثل أو قيمة أو التركيز على نموذج ، أو توجيه العقل الجمعى الى موقف تتطلبه الجماعة .

والفلكلور يعين الناس على استحداث التوازن بين واقعهم وبين آمالهم أو احلامهم . وقد يكون وسيلة للتخييل لاستحداث توازن وهمى .. المآدب المكتظة بصنوف الطعام .. ضروب النعيم .. مجاوزة الخطر .. المغامرة .. الحصول على المال .. الظفر بالفتاة الجميلة .. الخ . بيد أنه فى الوقت نفسه يعكس الثقافة بمفهومها المتسع وبتفاصيليها اليومية ، ويصور مشاهد مألوفة من الحياة اليومية للاحاد العاديين . وثمة وظيفة ثانية للفولكلور ، لا تقل عن الأولى أهمية ، وهى تأصيل القيم ، كما تتصورها البيئة الثقافية ، وتبرير طقوس الجماعة ومراسيمها وعلاقات وحداتها بعضها الى بعض بالنسبة لاولئك الذين يقومون بها . وعهد ما يبدو

شىء من الشك أو الريبة ، حول نموذج اعتقادى أو عملى ، تبرز أشكال فولكلورية لتأصيله وصيانته عن عوامل التبدد والانحلال • وما أكثر الحكايات والأمثال والمنظومات التى تنبض بهذه الوظيفة الايجابية •

ونحن نوافق الباحثين الذين عنوا بالوظيفة التعليمية للفولكلور فى بيئات الأميين ، وهى وظيفة عريقة ومستمرة • والواقع ان كثيرا من انواع الادب الشعبى تستهدف التسلية والترفيه فى ظاهر الأمر ، وقد تقصد الى التخييل واستثارة الاحلام ، ولكنها تعمل على ترسيب المعارف والخبرات والمهارات ، وتنقلها من جيل الى جيل ، ومن بيئة الى بيئة أخرى • وهذا يجعلنا نستعيد ما سبق ان اوردناه عن مفهوم الثقافة ، ذلك لاننا لا نستطيع أن نحكم على مجتمع أو فرد بأنه عاطل عن الثقافة ، لأن وسائل اكتسابها أقوى من مجرد الاعتماد على القراءة والكتابة • ويعود الفضل الى الفولكلور فى الحفاظ على قدر كبير من ثقافة الانسان وتنميتها ونقلها ، عبر الاجيال والبيئات •• ولقد اعترف بهذه الحقيقة المعنيون بالتربية والتعليم ، واصبحوا يعتمدون على الفولكلور، باعتباره من أهم الوسائل التربوية والتعليمية ، بل والتدريبية أيضا • وصنفت المواد الفولكلورية ، للأفادة من هذه الوظيفة ، بحيث تناسب البيئات والاعمار • واستغلت الحكايات الشعبية ذوات المغزى ، تماما كما كانت تستغل منذ أقدم العصور • ومن الطريف قيام بعض التربويين بتجارب فى هذا المضمار ، استخدموا فيها الأمثال والالغاز ، لتأصيل القيم ، وتأكيد المثل، وترسيب المعارف •

وأهم من هـذا كله أن الفولكلور لا يزال ينهض بوظيفة ، تزداد الحاجة اليها فى الجيل المعاصر • وهـذه الوظيفة ، التى كانت تبدو واضحة فى البيئات الثقافية ، التى لم تعرف التعليم بأساليبه الحديثة ، تشتد الحاجة اليها في مجتمعنا الحديث •

فالفولكلور يستحدث الانسجام بين العناصر الثقافية من ناحية وبين الوحدات الاجتماعية من ناحية أخرى (٣١) • وهو من أجل ذلك عصا الميزان الحقيقية فى المجتمعات الحديثة، لأنه يحـافظ بطريق غير مبـاشر ، وعن غير وعى فى اكثر الأحيان ، على القيم والنماذج والروابط التى يقوم المجتمع بها ، ويتعرض للتفكيك ، اذا لم يحرص عليها • ومما يضاعف من اهمية هذه الوظيفة قوة وسائل الاتصال الحديثة ، التى تستخدم المنظور والمسموح ، وقدرتها على النفاذ عبر الزمان عبر المكان وكثيرا ما تنقل الجديد من ضروب السلوك المرتكز على قيم غريبة عن المجتمع ولذلك يوازن الفولكلور بين الثقافة السائدة والعناصر الدخيلة • وهو لا يرفضها بصورة قاطعة وسريعة ، ولكنه يعمل دائبا على اختبارها ، ويأخذ الصالح منها ، فيعدله اذا كان فى حاجة الى التعديل ، ويعمل فى الوقت نفسه على تحوير تراثه ، بحيث يصبح قادرا على الحياة فى

31. Alan Dundes, The study of Folklore, Englewood Cliffs, N.J., 1965, PP. 290 - 294.

مرحلة جديدة ، أو فى وجه مؤثرات جديدة • ولابد من التحفظ هنا ، ذلك لان هذه الوظيفة فى حاجة ماسة الآن الى الاعتراف بها من القوامين على الخدمات الاجتماعية والتعليمية • ولابد من التمييز بين العنصر الفولكلورى المتخلف • الذى لم يعد صالحا لمسايرة التطور ، وبين العناصر القوية أو المرنة المتطورة ، مع معاونة البيئة الثقافية على الافادة من تراث الشعوب الأخرى • وقد ثبت أن وجوه التماثل والتشابه فيما صدر ، ولايزال يصدر عن الشعوب من معارف وتعابير ، أقوى وأكبر من وجوه الخلاف •

والعلاقة الحميمة بين الميثولوجيا والفولكلور هى بعينها العلاقة الحميمة بين الفولكلور ، باعتباره علما ، وبين العلوم الانسانية الأخرى • لقد أفادها كما أفادته ولم يعد عالة عليها ، وأنما استقل بمجاله ومنهجه واحكامه وما اجدرنا ان نعترف به اعتراف الأوساط العلمية فى الشرق والغرب ، والا نقف فى سبيل التقدم العلمى ، وان نتيح للمتخصصين فيه المراكز والمعاهد والوثائق جميعا •

كتب اخرى للمؤلف

١ ـ الهلالية فى التاريخ والادب الشعبى   دار المعرفة

٢ ـ الظاهر بيبرس

المكتبة الثقافية الهيئة العامة للكتاب

٣ ـ خيال الظل

المكتبة الثقافية الهيئة العامة للكتاب

٤ ـ الحكاية الشعبية

المكتبة الثقافية الهيئة العامة للكتاب

٥ ـ دفاع عن الفولكلور   الهيئة العامة للكتاب

٦ ـ التراث الشعبى   دار المعارف بمصر

٧ ـ الاسس الفنية للنقد الادبى   دار المعرفة

٨ ـ القصة القصيرة فى ادبنا الحديث   دار المعرفة

يصدر له قريبا

٩ ـ معجم الفولكلور

١٠ ـ الاداب الشعبية العربية

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٦٦ / ٨٠

الشركة المصرية لفن الطباعة
عبـد المنعم المصـيلحى
ت : ٩٧١١٤٩

UCC

المركز الثقافي الجامعي

